هل نحن بحاجة إلى نظام عقائدي جديد؟

بقلم
محمود مهدي الاستانبولي

المكتب الاسلامي

هل نحن بحاجة
إلى
نظام عقائدي جديد؟

هل نحن بحاجة إلى نظام عقائدي جديد؟

الإسلام وموقفه من العلوم المادية
آراء مفكري الغرب في الحضارة الحديثة

بقلم
محمود مهدي الإستانبولي

رسالة في الرد على دعاة حضارة الغرب، والمطالبين بنظام عقائدي جديد

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن والحضارة الحديثة

في صرح تعليمنا نقاط ضعف خطيرة ، وضعها المستعمرون لتحطيم معنويات الجيل العربي الجديد بأساليب لا شعورية ، انطلت على أذهان كثير من القائمين على شؤ ون التربية والتعليم في الدول العربية .

وذلك عن طريق بعض الدروس والمواد الفلسفية والاجتماعية والتاريخية بطريقة تجعل الطالب يعتقد أن الغرب مصدر كل مدنية ، وليس لغيره مدنية جديرة بالذكر ، وخاصة هذا الشرق الذي يتحدث عن حضارته مقرونة بالطعون والعيوب ! .

وقد كان من مساوىء هذا التوجيه الخاطىء أن غدا أبناء العروبة والاسلام يشعرون بالنقص الذي يكاد يصبح عقدة لديهم ، معتقدين أنه لا نجاة لهم إلا بالتخلي عن قوميتهم ودينهم ، والذوبان في بوتقة هذا الغرب والارتماء في أحضانه والاستسلام له ولمبادئه مهما كانت . ولنستمع الآن إلى إمام الدكاترة الذين يدعون إلى الإلتحاق بالغرب طه حسين :

« . . . لكن السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يُرسل إرسالاً ، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة ، وإنما هي واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا إلتواء . وهي واحدة فذّة ليس لها تعدد وهي : أن نسير سير الأوروبيين ونسلك طريقتهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها (كذا)،

حلوها ومرها ، وما يُحب منها ويكره ، وما يحمد منها وما يعاب . ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع[1] . . . »

ولكي ندرك جهالة الدكتور طه حسين الجهلاء وكذبته البلقاء ننقل فيما يلي آراء بعض فلاسفة وعلماء هذا العصر في الحضارة الغربية التي يدعونا الدكتور لتقليدها كالقردة !

المدنية الحديثة وخطرها :

قال (جودا) استاذ الفلسفة الانكليزية : [2]

« إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق ، فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ، ومنذ النهضة ظل العلم في ارتقاء ، والأخلاق في إنحطاط ، حتى بعدت المسافة بينهما . وبينما يتراىء الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية ، وتسخير المادة والقوى الطبيعية لمصالحة وأغراضه ، إذا هو لا يمتاز في أخلاقه ، في شرهه وطمعه ، وفي طيشه ونزقه ، وفي قسوته وظلمه عن غيره . وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة ، إذا هو لا يدري كيف يعيش ، وتوالي الحروب الفظيعة الهائلة دليل إفلاسه ، وإنه يربي نشأه ليموت ، وقد خولت له العلوم الطبيعية قوة قاهرة ، ولكنه لم يحسَن استعمالها ، فكان كطفل صغير أو سفيه أو مجنون ! . . »

وقال هذا الفيلسوف في مكان ثان : « إن فيلسوفاً هندياً سمعني أطري حضارتنا وأقول : إن أحد سائقي السيارات قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل في ساعة واحدة على الرمال ، وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في كذا ساعة . فقال ذلك الفيلسوف الهندي : « إنكم تستطيعون أن تطيروا في الهواء كالطير ، وأن تسبحوا في الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض »!

وقال الأستاذ جودا في موضع ثالث من هذا الكتاب : [3]

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر ج١ ص٤٥ .

(٢) في كتابه الذي سماه سخافات المدنية الحديثة .

(٣) الترجمة للأستاذ أحمد أمين .

« انظر إلى الطيارة التي تحلق في السماء ، يخيل إليك أن صانعيها في علمهم ولباقتهم فوق البشر ، والذين طاروا بها أولاً كانوا في علو عزمهم وجرأتهم أبطالاً ، ولكن أنظر الآن إلى المقاصد السيئة التي استخدمت لها الطيارة ، وتستعمل لها في المستقبل . . . إنما هي قذف القنابل خصوصاً الذرية ، وتمزيق جثث الانسان ، وخنق الأحياء ، وإحراق الأجساد ، وإلقاء الغازات السامة ، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً .

وهذه إما مقاصد الحمقى ، أو مقاصد الشياطين » .

وننقل فيما يلي مقتطفات من آراء الفيلسوف اشبنغلر كما ذكرها الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه عن الفيلسوف المذكور .

١ ـ سيادة الآلية :

« . . ثم يشرف دور الحضارة على الزوال ، فتشهد الروح الغربية انقلاباً هائلاً في نظرتها الكونية ، وذلك بفضل اختراع الآلة البخارية . . . فإلى ذلك الحين كانت الطبيعة تؤدي خدمات . أما الآن فقد وضع فوق عنقها النير وصارت كالإماء يقاس عملها بقوة الاحصنة البخارية في شيء من التهكم . . . »

٢ - إنهيار الحضارة الأوربية ونذر الحضارة الجديدة :

« . . . وقد صارت الآلة غاية خالصة بعد أن كانت وسيلة ، وتحكمت النزعة الآلية في كل شيء في الحضارة الغربية ، فكان ذلك إيذاناً بحدوث الكارثة التي أوشكت أن تقع فيها . . . وأصبح التفكير بواسطة قوة الأحصنة لا بالقوة الروحية . . . »

كل هذا يدل على أن العذاب الذي تعانيه الحضارة الغربية اليوم ليس عذاب أزمة طارئة ، لا بد يوماً أن تزول ، إنما هو عذاب كارثة هائلة ، تنتهي بها مأساتها الطويلة » .

ويقول المستشرق لويس ماسينيون :[1]

---

(١) في مقدمة كتاب المعجزة العربية لماكس فانتاجو (ص ٥) .

« . . . ومن حق العرب علينا نحن ضيوفهم ، والوافدين عليهم من مثلي أنا ، والسيد فانتاجو ، أن نرفع الصوت عالياً طالبين إليهم المقاومة . أن يقابلوا هذه الدعاية المذلة التي تقترح عليهم التنازل عن شرفهم وتقليدهم وإبائهم ، والاستسلام أمام القوة الغربية ورؤوس الأموال المصرفية التي تطلب إليهم الانسجام في طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة ، حضارة الانسان الآلي ، التي لم تعد تؤمن بنفسها أو بالذات الالهية ، وتصبو إلى إخضاع العالم لنظامية ثقافية أمريكية بلهاء ! أن هذا الانتاج الصناعي المغشوش سيسقط وشيكا ـ **ليصمدوا فالعالم بحاجة إليهم** » .

وقد عبر العالم النفساني مكدونال عن ضلال الحضارة الحديثة وخلوها من الهدف بقوله :

إن سيرنا أشبه (بسير طائرة تقطع محيطاً عظيماً بسرعة فائقة ، ومع أن ملاحيها لا يعلمون أين هم ، ولا إلى أين يتجهون ، فإنهم يستمرون في السير ، جادين في استخدام آلاتهم ، ومؤملين إن ذلك سوف يؤدي بكيفية ما إلى نتيجة ما ! !)[1] .

نكتفي الآن بهذا القدر من آراء هؤلاء العلماء في حكمهم على حضارة قومهم ، وإنها سائرة في مثل المرحلة التي سبقت سقوط الدولة الرومانية ، ومن أراد المزيد من هذه الأفكار ، فليراجع ما كتبه المؤرخ الانكليزي المعاصر أرنولد توينبي Arnold toynbee في كتابه (الحضارة في الميزان) وفي كتابه (الحضارة والغربCivilesation and the west) .

ما رأي القارىء الكريم بعد اطلاعه على أقوال المنصفين المفكرين الغربيين في الحضارة الأوربية ، بالدكتور طه حسين وأضرابه من الدكاترة الذين ينهجون نهجه ويدعون دعوته !؟

الغزو الثقافي :

قد يقول قائل من سليمي الفطرة : « إن الدكتور طه اجتهد فأخطأ فله

---

(١) نقلاً عن كتاب اتجاهات في التربية الحديثة للأستاذ محمد فؤاد جلال ص ٣٦ .

أجر !» الحقيقة أن له أجراً ، ولكن لا من الله سبحانه ، بل من أسياده المستعمرين . قال الأستاذ محمد الغزالي :

«. . . ولنتجاوز الدكتور زكي مبارك إلى قنطرة أخرى من قناطر الغزو الثقافي الصليبي ، أعني الدكتور طه حسين ، فإن هذا الرجل كان بوقاً عالياً لآراء المستشرقين ودسائسهم العلمية ، وضغائنهم الدينية . . .

وإني اعترف بأني كنت مخدوعاً في نفر من أدبائنا ـ ومنهم الدكتور طه حسين ـ إذ حسبت شرودهم عن النهج السوي ضرباً من حيرة الباحثين في اكتشاف الحقيقة ، ولوناً من الاجتهاد في تلمس الصواب ، قد يعذر صاحبه في النتائج التي يصل إليها ، وإن خرج على العرف ، وأبعد في المذهب . . .

وسرّ انخداعي ، إني رجل لا أعرف غير اللغة العربية، ولم أقف على كتابات المستشرقين الكثيرة بلغاتهم الأخرى .

فلما تكلم النقاد ، وأماطوا اللثام عن المواطن الأولى للأفكار التي هاجتنا ، والتي تناولت الإسلام بالهمز واللمز ، بل بالطعن والتجريح ، عرفت أننا أمام عصابة مأجورة للشيطان ، وأن المسألة ليست خطأ الأذكياء في نشدان الحقيقة . . .

نعم ، لقد كنا أمام دواب ناشطة في نقل المطاعن على القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ناشطة في تهوين التراث الاسلامي كله ، وصرف المسلمين عن اعزازه والأخذ به . . .

ناشطة في إخراج أمة جديدة تحتقر تاريخها الماضي ، ورسالتها الكبرى ، وترمق المدنية الغربية بدهشة المعجب ، وفقر المتسول .

لم يكن إلحاد هؤلاء الكتاب وليد عقول أعياها التفكير فضلت ، بل كان إلحادهم وليد اتباع لتوجيهات السادة المستعمرين ، وتلقينات الأساتذة المستشرقين .

فإذا لم يسيروا وراء المستشرقين على نهج واحد ، ساروا في محاذاتهم بحيث لا يبعدون عنهم في طريقة ولا غاية . . »[1]

كيف يحاربنا الغرب الاستعماري بأبنائنا :

ورب سائل يسأل : وما فائدة المستعمرين من الدعوة إلى اعتناق حضارتهم والكفر بحضارتنا ؟ .

إن لهم من ذلك فوائد نذكر منها :

١ ـ إهمال خصائصنا العربية الاسلامية مصدر قوتنا حتى نصبح لقمة سائغة لهم ، لذا نراهم ينفقون الثروات الطائلة في سبيل التبشير بين المسلمين لترك دينهم ، وما فيه من مناعة وقوة جبارة في محاربة الاستعمار ، والاستماتة من أجل الحرية . قال رئيس وزراء بريطانيا الاستعماري الشهير غلادستون : « ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبة السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون نفسها في أمان [2] ! »

وقال غاردنر : « إن القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوروبة »[3].

٢ ـ إهمال ميراثنا القومي والعقائدي والتشبه بهم وتقليدهم لنصبح ذيلاً وخدماً لهم ، ندور في فلكهم ونسبح بحمدهم ، مثلنا في ذلك مثل هنود أمريكا الحمر الذين اعتنقوا دين الولايات المتحدة الأمريكية وتعلموا علمها وتحضروا بحضارتها . فماذا كانت عاقبتهم ؟!

إنهم يعاملون معاملة المنبوذين ويطردون ويقتلون في كل مكان ! .

لهذا كله ينبغي أن نكون من هؤلاء الأساتذة والدكاترة الداعين إلى اعتناق الحضارة الغربية على حذر ، ونتوجس منهم خيفة ، وإن كانوا من أبناء قومنا ويتكلمون لغتنا ! ويتسمون بأسمائنا ! .

---

(١) الاستعمار أحقاد وأطماع ص ٢٦٠ .
(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٩ للعلامة محمد أسد (ليوبولد فايس النمسوي) .
(٣) التبشير والاستعمار ط١ ص ٣١ .

علينا أن ندرك جيداً أن الغرب قد تلقى في حروبه الصليبية درساً قاسياً وعلم خطورة الغزو الحربي ، وأخذ منذ ذلك الحين بغزونا ثقافياً ويهدم حصوننا من الداخل عن طريق دس سمومه في دماء بعض أبنائنا سواء في مدارسه التبشيرية والالحادية أو في معاهده في الغرب ، فيعدهم كما يريد ليكونوا حرباً علينا وعلى تقاليدنا وتراثنا الاسلامي العظيم ! .

وهكذا يتوصلون إلى تحطيم معنوياتنا وما يتبع ذلك من أضعاف قوانا وذخيرتنا العقائدية دون أن يكلفهم ذلك اعلان الحروب وشن الحملات ! .

فالحذر الحذر !

واليقظة اليقظة !

وحاشانا أن نكون بقولنا داعين إلى الجهل ومنفرين من العلم ، فإن فعلنا كنا خارجين عن ميثاق الاسلام الذي لا يجتمع مع الجهل ، ويدعو بقوة وحماسة إلى طلب العلم أينما كان ، ويجعل ذلك من الفريضة التي يعذب تاركها . إنما الذي نحذر منه هو تقليد الغربيين والذوبان في حضارتهم وقبولها على علاّتها ، كما يوصينا طه حسين وأضرابه ، لأنها قائمة على أسس مادية خالية من العاطفة الروحية ، فينبغي الاكتفاء بالعلوم والفنون والمخترعات المفيدة ، تخلصاً من شرور المدنية الغربية وإبقائها على شخصيتنا . فإن الأمة التي تفقد هذه الشخصية تفقد كيانها ووجودها ! لا سيما ونحن حملة رسالة انسانية تدفعنا إلى إقامة حضارة فضلى تنعم بها البشرية !

هل العلم يناقض الإيمان ؟ .

ورب سائل يسأل بمناسبة قولنا أن الحضارة الحديثة مادية ملحدة ، هل العلم يدعو إلى الإلحاد ؟ .

لندع العلامة محمد أسد يجيب عن هذا السؤال بشيء من التفصيل :

إن الاسلام لم يقف يوماً ما سداً في وجه التقدم والعلم ، إنه يقدر الجهود الفكرية في الانسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة . وما من دين ذهب أبعد من الاسلام في تأكيد غلبة العقل ، وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة .

وإذا نحن عملنا بأركان هذا الدين فإننا لا نستطيع أن نهجر هذا التعليم الحديث في حياتنا . إننا نرغب في أن نتعلم وأن نتقدم ، وأن نصبح من الناحية العلمية والاقتصادية أكفاء كالشعوب الغربية ، ولكن الشيء الوحيد الذي لا يستطيع المسلمون أن يتمنوه هو أن ينظروا بعيون غربية ويروا الآراء الغربية ، إنهم لا يستطيعون أن يتمنوا ـ إذا أرادوا أن يظلوا مسلمين ـ أن يتبدلوا بحضارة الاسلام الروحية تجارب مادية من أوروبة .

المعرفة ليست غربية ولا شرقية ، إنها عامة بالمعنى الذي يجعل الحقائق الطبيعية عامة . إلا أن وجهة النظر التي تُرى منها هذه الحقائق وتُعرض ، تختلف باختلاف المزاج الثقافي في الشعوب . إن علم الحياة ، بما هو علم الحياة ، والعلم الطبيعي وعلم النبات ، بما هو كذلك ، ليست كلها مادية ولا روحية فيما تقصد إليه . إنها تتعلق بملاحظة الحقائق وبجمعها وتحديدها ثم استخراج القواعد المعقولة منها .

أما النتائج الاستقرائية التي نستخرجها من هذه العلوم المتعلقة بالمظاهر العامة في الحياة ، أي فلسفة العلوم ، فإنها لا تنبني على الحقائق والمشاهدة فقط ، ولكنها تتأثر إلى حد بعيد جداً بمزاجنا المتأصل فينا ، أو بموقفنا الحَدْسي من الحياة ومشاكلها . ويقول الفيلسوف الألماني الكبير (كانت) : « قد يبدو من المستغرب ـ ولكنه أكيد على كل حال ـ أن عقلنا لا يستنبط نتائجه من الطبيعة ، ولكنه يعزوها إليها !! »

كيف تدس السموم في الثقافة :

إن وجهة النظر الذاتية وحدها هي التي تؤثر هنا وتبدِّل مظهر الأشياء ، وكذلك العلوم ليست في ذاتها مادية ولا روحية ولكنها يمكن أن تنقلب إلى هذا المظهر أو ذاك حسب استعدادنا العقلي الخاص . إن الغرب بصرف النظر عن عقليته المثقفة إلى درجة قصوى ، ذو استعداد مادي ، وهو من أجل ذلك مناهض للدين[1] في مدركاته وافتراضاته الأساسية . وكذلك نظام التربية الغربية على وجه

---

(١) إن أوروبا لم تعرف من الدين إلا الصورة المشوهة المقاومة للعقل والعلم التي قدمها رجال الكنيسة هناك لذا انكر الغربيون كل دين ، لزعمهم أن الأديان كلها سواء !(م)

العموم . وليست دراسة العلوم الحديثة التجريبية هي المضرة بالحقيقة الثقافية في الاسلام ، وإنما المضر هو روح المدنية الغربية التي يقترب المسلم بها إلى تلك العلوم .

. . . وسيكون من واجب العلماء المسلمين ومن الفرص السانحة لهم أيضاً ، إذا وصلوا إلى حدود النظريات الفلسفية الغربية ، وإنهم من طريق اتجاههم العقلي الخاص ـ الاسلامي ـ قد يصلون على الأرجح إلى نتائج في المعقولات تختلف بعض الاختلاف من تلك التي وصل إليها العلماء الغربيون المحدثون .

ولكن مهما كان الذي سيكشف عنه المستقبل ، فإن من الممكن دائماً أن ندرس العلوم ، وأن ندرسها من غير أن نخضع خضوعاً يسترقنا للاتجاه العقلي في الغرب ، إن ما يحتاج إليه العالم الإسلامي اليوم ضربة لازم ليس استشراقاً فلسفياً جديداً ولكن تجهيز علمي فني عصري .

ولو طُلب إليَّ أن أقترح شيئاً على لجنة تعليمية مثلى تسيرها الاعتبارات الاسلامية وحدها لحثثت على أن تختار من جميع النتاج العقلي في الغرب العلوم الطبيعية (مع الاحتفاظ بالموقف الآنف الذكر) والرياضيات فنعلمها في المدارس الاسلامية .

لنكن على حذر من الفلسفة والآداب الغربية :

أما تعليم الفلسفة الأوربية والأدب الأوربي والتاريخ العام كما تُرى (هذه كلها) من وجهة نظر الغرب ، فيجب أن يفقد المرتبة الفضلى في برامج التعليم .

إن الموقف من الفلسفة الأوروبية يجب أن يكون واضحاً منذ البداية ، أما الأدب (الأوربي) فيجب علينا بكل تأكيد ألاَّ نحرّم دراسته ، إنما يجب أن نرد دراسته إلى حدود قيمتها الحقيقية ، أي اللغوية ، فالطريقة التي تجري عليها معالجة الأدب الأوربي وتدريسه في البلاد الاسلامية تدور ـ ونقول ذلك بصراحة ـ مع الهوى . إن الاغراق الذي لا حد له في قدر قيمته يحمل العقول الناشئة الغضة بطبيعة الحال على أن تتشرب روح المدنية الغربية بثقة عمياء واندفاع كبير قبل أن يتاح لها أن تعرف النواحي السلبية فيها معرفة كافية ! وهكذا لا تكون الطريق

معبدة لحب ذلك الأدب حباً عذرياً فقط ، ولكن لتساعد على التدريب العملي لتلك المدنية الغربية التي لا يمكن أن تتفق مع روح الاسلام .

إن الدور الحاضر الذي يقوم به الأدب الأوربي في المدارس الإسلامية يجب أن نتبدل به تدريساً عاقلاً بصيراً للأدب الاسلامي يتأثر منه الطالب بسعة الثقافة الإسلامية وغناها ، وهكذا يشيع في نفسه أمل جديد بحسن مستقبلها .

إن تعليم الأدب الأوربي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الاسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريباً في عيون النشء المسلم . ومثل هذا ـ ولكن إلى حد أبعد ـ يصدق على التعليل الأوربي للتاريخ العام ، إذ لا يزال الموقف القديم فيه « رومانيون وبرابرة » يظهر بجلاء . ثم أن لمثل هذا العرض في التاريخ هدفاً خفياً ، ذلك أنه يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء أو يمكن أن يجيء إلى هذا العالم . وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبي لسعي الغربيين إلى السيطرة وإلى القوة المادية[1] . . .

ومما سبق ندرك النتائج الآتية :

١ ـ مبلغ جهل كثير من أساتذتنا الذين أخذوا الإلحاد تقليداً عن الغربيين ، زاعمين أن العلم والإيمان لا يجتمعان !

٢ ـ التخلي عن تدريس الفلسفة الغربية التي تمت بالنسب إلى الفلسفة الاغريقية الجدلية ، وقديماً كانت سبب انهيار المجد العربي الاسلامي ، وقد صدق فينا حدس البطريرك البيزنطي الذي حث الامبراطور على إرسال هذه الكتب الفلسفية إلى العرب قائلاً له : إن هذه الفلسفة ما دخلت أمة إلا أفسدتها . وإذا كان لا بد من تدريس هذه الفلسفة ، فينبغي أن يكون ذلك بطريقة نقدية وبوجهة نظر إسلامية عربية .

٣ ـ الحذر والانتباه حين وضع مناهج الأدب الغربي والتاريخ العام . ومما يؤسف له أن مدارسنا تدرس هذه المواد على علاتها حتى التاريخ العام يترجمه الأساتذة ترجمة من مصادر غربية أثناء تأليفهم !

٤ ـ لزوم تدريس العلوم الحديثة بروح تمليها الثقافة العربية الاسلامية .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٦٩ وما بعدها بتلخيص .

مصير المادية :

وخلاصة رأينا في الحضارة الغربية أنها حضارة لا هدف لها سوى الأغراض المادية من غذاء ومسكن وقضية الجنس ، نهارها نهار الجشع والنهم والتكالب على الآلة ، والقضاء على الضعفاء ، وليلها ليل الحيوان الشبق ! وهي جادة مسرعة لتحقيق هذه المطالب الجسدية وحدها بسبب فقدان المثل الأعلى العقائدي . . .

ولكن البشرية - إذا بقيت سالمة ، ولم تفنها هذه الحضارة ، فلا بد لها أن تستيقظ بعد شبع الجسم من الغذاء والملبس والمسكن والجنس ، لا بد للإنسان أن يفيق من غفلته ، ويدرك عظمته التي دفنت في أوحال الحيوانية ومستنقعات المال وركام المادة ، فيحطم جميع حصون الإلحاد ويصيح أمام السدنة الماديين : تنحوا عن الشمس ، تباً لحضارتكم الحيوانية التي لم تزدني إلا قلقاً واضطراباً . . .

ثم يبحث عن أفاق جديدة ليشبع روحه فيقوده الحنين إلى السؤال :

من أنا ؟ من أين أتيت ؟ وإلى أين أصير ؟، كيف وجدت ؟ ومن أوجدني ؟ أنا لا يمكن أن أوجد نفسي ، ولا يمكن أن توجدني الصدف ! كما لا يمكن أن أنشأ من العدم . إنني أشعر بقوة تدفعني إلى الخلود . . . !

عندئذ تنتهي الفلسفة المادية وتموت إلى الأبد وخاصة بعد تفتت الذرة وتحولها إلى طاقة بعدما كانت معبودة الماديين !

نعم تموت لتحل محلها الفلسفة المادية الروحية، الفلسفة التي تصل السماء بالأرض . الدعوة التي نادى بها الإسلام وحده من الأديان والنظم ، وحينئذ يتحقق حلم برناردشو ويعتنق الغرب بعد افلاسه من مذاهبه ، الدين الاسلامي الذي ينظم حياة الانسان والكون في أروع تنظيم ، فلا تطغى المادة على الروح ، ولا الروح على المادة ، ويقدم للإنسانية أعظم الحلول الاقتصادية والاجتماعية وأصول الحكم بخطوط عريضة ، تاركاً لها حرية البحث والارتقاء .

هل نحن بحاجة إلى نظام عقائدي جديد ؟!

لننتقل بعدما تقدم إلى لون جديد من ألوان دكاترتنا الذين ينهجون نهج إمامهم طه حسين ، وهو الدكتورحكمت هاشم عضو المجمع العلمي العربي

ورئيس جامعة دمشق ، فقد كان أذاع حديثاً من محطة الأذاعة ثم نشره في مجلة الثقافة[1] بعنوان : لماذا لا تكون لنا ايديولوجيا عربية ، افتتحه بالعبارة الآتية :

« يبحث المفكرون والسياسيون اليوم عن نظام عقائدي متماسك لدولتهم الجديدة ويطوون هذا البحث تحت عنوان : الايديولوجيا العربية ».

ترى هل هذه الدعوة التي يدعيها الدكتورحكمت بأن المفكرين والسياسيين العرب يبحثون عن نظام عقائدي لدولتهم ، هي من بنات خياله ؟! أم أنه يقصد بهؤلاء المفكرين والسياسيين هو نفسه وأمثاله من (المتنورين) الذين لا يعجبهم نظام الاسلام الذي شهد بعظمته وصلاحه لكل زمان ومكان أقطاب السياسة والمفكرون المنصفون من رجالات الغرب في كتبهم ومؤتمراتهم الحديثة ، ذلك التشريع العجيب الذي جعل من العرب أمة مجد وسؤدد مدنت العالم قروناً طويلة !

حرص على نظام الإسلام :

ومهما كان شأن وخطورة المفكرين والسياسيين العرب الذين يبحثون عن نظام عقائدي لدولتهم الجديدة ، فإنني أكذب مدعاهم جميعاً بتصريحات زعيم العروبة

قال في مقال له بعنوان دعوة الإسلام :

« . . . حقاً إن في الدعوة الاسلامية دروساً وعبراً ، فلم لا نتخذ منها واعظاً ومرشداً ؟ لِمَ يشق بعضنا عصا الطاعة على بعض ؟ ولم نفترق في سياستنا وأهدافنا ومثلنا ؟ لم لا نهتدي بهدي الاسلام عندما نضل الطريق ، أو تشتبه علينا الأعلام ؟ لم يكون بعضنا حرباً على بعض ؟ ولم ننساق في سبيل غير سبيل الأخوة الصادقة ، والعصبة المتكاتفة والجماعة المتآزرة ؟

ألم تكفنا هذه القرون السوالف التي صرنا فيها إلى حطام ؟ ألم تنل منا العوادي لما كان بيننا فرقة ؟ .

---

(١) السنة الأولى ع : ٣ .

ألم نستذل وقد كنا سادة الدنيا وكرامها ؟ .

أيها العرب ، أيها المسلمون : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول بأن تكونوا يداً على من عاداكم ، مسالمين لمن سالمكم ، ولا تفرقوا ولا تهنوا فأنتم الأعلون .

وليست هذه العبارة ألفظها من الشفاه ، أو يرددها اللسان ، ولكنها نابعة من قلبي المؤمن إيماناً عميقاً بدعوة الإسلام ، التي هي دعوة القوة والسلام ، فهل تضعون يدكم في يدي ؟

وهل تلبون هذه الدعوة الحارة من قلب يؤمن بالعروبة والاسلام ؟

وليس يكفيني إن بلغت ، وأشهدت الله علي أن بلغت ، ولكني سأسعى ما حييت ، بكل ما في من جهد وعزم وإيمان لتصبح هذه الدعوة حقيقية لا ريب فيها ، والله على ما أقول وكيل »[1] .

وجاء في كتاب الاستعمار أحقاد وأطماع :

« . . . يسرنا أن رئيس الحكومة - . . . - قد حسم أسباب الشر التي هاجها هؤلاء الكتاب الخائنون للدين والأمة ، إذ أوضح أن مصر في عهد الثورة يستحيل أن تهجر أو أن تطرح ديانتها ، وأنها ستبقى متمسكة بأحكام الاسلام ، سائرة على نظامه » .

وفي حديث نقله مراسل صحيفة (التمبو) الايطالية قال هذا الرئيس :

« إن أكثر العرب يدينون بالاسلام ، وهو دين بيّن بوضوح القواعد التي يقوم عليها التعاون بين البشر ، **فلا داعي - والحالة هذه - إلى استيراد مبادىء جديدة** ، سواء أكانت شيوعية أم من أي نوع آخر كي يعتنقها المسلمون !! . . »

. . . ومرة أخرى جمع سيادة الرئيس عدداً كبيراً من رجال الصحافة الوطنية والأجنبية وشرح لهم الأصول المعنوية التي تقوم عليها الحياة العربية .

فقال في تصريح هام :

---

(١) عن كتاب الدعوة التحريرية الكبرى ص ٧ .

« . . . إن مصر[1] ستعمل على تحقيق المثل العليا ، وتحقيق العدالة للأفراد ، والمساواة بين هؤلاء الأفراد وتلك الشعوب ، وتصر على تحقيق الحرية الشخصية لكل فرد ، وفي سبيل تحقيق هذه المثل العليا فإننا سنعمل طبقا لتعاليمنا الدينية وتراثنا الثقافي . . . »

تعليق المفكرين على كلام سيادة الرئيس :

وقد علق وزير الأوقاف على هذا الحديث بقوله :

« منذ سنين طوال والاستعمار الغشوم ينظم غزواً ثقافياً واسع النطاق ، يريد من ورائه تسميم الوعي العربي ، وتلويث المنابع التي تمد أفكارنا ومشاعرنا بالحياة » .

وهو يرمي بهذا الغزو الماكر إلى خلق أجيال تعنو له ، وتسير خلفه ، وتعمل بوحيه في كل مجال .

. . . لذلك حرص أركان النهضة القائمة على توكيد حريتهم العقلية والنفسية ، وعلى استقلالهم الثقافي الخالص ، وعلى القول بأن مواريثهم العربية والدينية ـ هي وحدها ـ محور سلوكهم ، وأساس سياستهم .

وليس من شك في أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة كان متجاوباً مع واقع أمته ، ومترجماً عن طبيعة آمالها حين أعلن لصحافة العالم : إن مصر لن تتبع جبهة شرقية ولا غربية وإن لها من مذهبها الاجتماعي ما يجعلها بعيدة كل البعد عن الجانبين المتنازعين !

وأنها إذ تلتزم الحياد الايجابي بين المعسكرين ، تكتفي بما لديها من معنويات قائمة ، ومن ثم فلن نكون ـ كما صرح الرئيس ـ شيوعيين ولا الحاديين ولا استبداديين ، وما الذي يجعلنا تبعاً لهذه النزعات ؟ أو عالة على تلك المذاهب الغربية الدخيلة ؟

إن الغني لا يحترف التسول ، والذي ينظر إلى خزائنه فيجدها لا يتكفف الناس . . .

---

(١) إن التصريحات كانت قبل الوحدة المباركة .

إننا سنبقى ما حيينا أوفياء لمواريثنا المقدسة وسنذود الغزو الثقافي عن مصادر التربية والتوجيه في بلادنا .

إن مهمتنا أن نحيا كما نريد ، ووفق الهدايات التي حبانا الله بها . . .

نحن أبناء حضارة قد تمهد فيها من القواعد ، واستقر لها من الدعائم ما يجعلنا نبني ونعلي البناء غير ناقلين ولا مقلدين .

إن حضارتنا أسبق في التاريخ ، وأنبل في المعدن وأقدر على البقاء من مذاهب الغرب التي قام عليها أخيراً وشقي كثيراً » .

إن مثل أساتذتنا الجامغيين وغيرهم الذين يبحثون عن نظام عقائدي لدولتهم الجديدة مثل الطفل الذي يملك جوهرة ثمينة لم يعرف ولم يدرك قيمتها ، فذهب لبيعها بحبات من الملبس المسموم !

وإلا فهل يعد من الراشدين من يفضل نظاماً على الاسلام هذا التشريع السماوي الذي أدهش مفكري الغرب أمثال برناردشو وجيب وكارليل وغيرهم الذين أعلنوا أن هذا الدين كفيل بحل مشكلات الغرب وسعادة العالم ؟! .

تمسك رئيس العراق بالإسلام :

لقد صرح سيادة رئيس وزراء الجمهورية العراقية بتمسكه بالإسلام ، وعدم الإصغاء إلى غيره من مذاهب غربية وشرقية ! وكم كنا نود الاتيان على ... تصريحات سيادته في هذا الموضوع لولا خشية الإطالة ، وهي لا تقل قوة ، وصراحة عن أقوال سيادة الرئيس

شهادات منصفي نصارى المشرق بالإسلام :

قال العلامة فارس الخوري :

« إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجد التاريخ بمثله ، والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها . يحتوي على أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ولم يستطيع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الشريعة التي

دعا الناس إليها باسم الله ، بانها متفقة مع العلم ، ومطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية ».

وقال الدكتور شبلي شميل في مجموعته :

« . . . لا بد لي كيف كان الأمر من نصر القرآن اعجاباً به وبصاحبه ، وإن كنت خارجاً عن دينه ، فالحقيقة أعم من أن تكون ضالة المؤمن وحده ، فإن نصرها واجب على كل منصف ».

وقال الأديب لبيب الرياشي في كتابه نفسية الرسول العربي :

« لنتجرد . . . ولنتطهر من جذام التعصب . . . ما ندمت على شيء في حياتي ندماً عصبياً ساحقاً مثل ندمي على جهلي نفسية الرسول العربي والإمام الأعظم العالمي « محمد بن عبد الله » في أيامي الماضيات وسنواتي الغابرات .

أما لو درست تلك الحياة وهاتيك النفسية وتفهمت جوهرها ، واستنرت بنورها ربع قرن ، للامس الحق معشوق عقلي ودمي وعصبي ، فبعث الحق في شخصيتي الجسمية والنفسية قوة كونية عظيمة رضية حكيمة من هدي الرسول العربي العالمي ، ومن نور عقله ، ولكنت إذ ذاك رجلاً غير هذا الرجل ، ومفكراً غير هذا المفكر ».

لعل في هذه الأقوال السابقة من مواطنينا النصارى المنصفين ما يلقم المفسدين في الأرض حجراً ويرد زعمهم القائل بأن المسيحيين في بلادنا لا يرضون بالإسلام تشريعاً للدولة !

إن هذا الدين العظيم ليس ديناً تعصبياً ضيقاً ولا إقليمياً محدوداً ، فهو يعطي الحرية الدينية للمواطنين في قضاياهم الشخصية ، وقديماً عاشت الأديان المختلفة أيام مجد العرب في ظلال الإسلام فلم يجد أحد حرجاً وبقاؤ هم إلى يومنا هذا أعظم دليل على تسامح تشريعنا السماوي !

إن الدين المسيحي ليس فيه تشريع ، إنما هو وصايا ومواعظ ، فلا بد للنصارى من نظام يحتكمون إليه ، فهم إما أن يأخذوه من القوانين الأجنبية التي تمت بصلة أصيلة إلى الرومانية الوثنية ، وإما أن يأخذوه من التشريع الإسلامي ،

وهو عربي اللسان عربي الوطن ، وفي اتباعه كنظام وقانون ـ لا كدين ـ ليس فيه غضاضة لمواطنينا النصارى بل فيه فخرهم !

سهوحكمت عن الغرض الرئيسي لمقاله :

ثم راح الدكتور حكمت هاشم يدعي أنه في مقاله المذكور يود الرد على مقال للأستاذ اسماعيل المهدوي ، نشره في صحيفة المساء المصرية[1] بعنوان البحث عن ايديولوجيا ، فقال الأستاذ حكمت:

« وغرضنا في هذا المقال العاجل أن نبين إمكان إتخاذ مذهب عقائدي يستطاع تسميته بالأيديولوجيا العربية » . .

وقد بحثت طويلاً في مقاله ، فلم أجده تحدث عن هذا الغرض ، إنما انتقل بعد الكلام على معنى الايديولوجيا إلى بيان العناصر التي يود أن يتألف منها النظام العقائدي الذي يدعو إليه ، وهكذا سها عن الغرض الرئيسي لمقاله !

دكتور ينكر وجود الروح وآخر يسخر من قيمتها ! :

ثم قال الدكتور حكمت بعد كلام اساتذته الغربيين وتعريفهم للأيديولوجيا .

« . . . ليس من شأننا هنا أن نسترسل (إلى) نقاش حول القضية بالشكل الذي وضعها على نحوه الهيجليون ومن بعدهم ماركس ، فالقول بأن المادة أصل أو أن الفكر أصل مسألة فلسفية من نطاق الميتافيزياء . وقد يكون وضعها في هذه الصيغة المتأرجحة بين حدين منفصلين وضعاً فاسداً من أساسه ، بل لعله كان من الخير أن نستعمل هذين اللفظين اللذين لا يحتويان أي مدلول راهن ، على وجه المجاز فقط كوجهين لحقيقة واحدة لا تقبل القسمة . . . »

إن الدكتور حكمت يذهب بكلامه السابق مذهب كثير من الغربيين الماديين الذين ينكرون الروح ولا يعتقدون بوجود نفس منفصلة عن المادة ومفارقة لها حسب نظرية الإسلام ونظرية كل دين سماوي . وقد حذا في هذا حذو الدكتور كامل عياد الأستاذ في كلية التربية ، فقد قال :

---

(١) ٢٢ مايس ١٩٥٨ .

« إن الروحانية التي يصف بها كتاب الغرب وباحثوه ثقافتنا الشرقية ، إنما يقصد بها صرفنا عن اللحاق بهم ، لأن هذه الروحانية تستند إلى العاطفة والوجدان وتتعارض مع التفكير العلمي القائم على المشاهدة الحسية والتجربة العلمية والنظرة الموضوعية ، وعلى كل حال ، فإنما القصد هو إظهار الفرق بين الغربيين والشعوب الأخرى ، ثم دفع هذه الشعوب للتمسك بعاداتها وتقاليدها وطرائق تفكيرها القديمة لئلا تقتبس الحضارة الحديثة وتسعى للتحرر من سيطرة الغربيين[١] .

وقد بنى الدكتور عياد زعمه هذا على واقعة شهد فيها مندوباً من مؤسسة روكفلر الأمريكية يزور جامعة دمشق بدمشق ، وقد تلكأ هذا المندوب ولاذ بمختلف المعاذير حين أعربت له الجامعة عن حاجتها إلى بعض المخابر والأجهزة العلمية ، ولكنه لم يلبث أن أظهر البشاشة ولم يتردد في قطع الوعود بالمساعدة حين انتقل الحديث إلى إنشاء معهد لدراسة التصوف الإسلامي .

وقد أثبت الدكتوران بإنكارهما الروح وإهمال شأنها ، جهلاً مريعاً جرياً مع النظريات المادية القديمة ، فإن أشد العلماء الماديين عناداً ، عادوا اليوم فاعترفوا بالروح وخلودها . .

شهادات كبار العلماء على وجود الروح :

قال كاميل فلاماريون العالم الفرنسي الكبير في كتابه (المجهول والمسائل النفسية) تحت عنوان (المفكرون) .

« عدد كبير من الناس مصابون بقصر نظر حقيقي في العقل ، وقد صورهم (لومبير) أصدق تصوير بقوله : إنهم يتخيلون أن الأفق المحيط بهم هو نهاية العالم فترى الحوادث الجديدة والآراء الحديثة تكسفهم وتذعرهم ، فهم لا يريدون أن يتغير السير العادي للأشياء ، أما تاريخ تقدم المعارف الإنسانية فلديهم من الأمور المهملة . . .

في كل عصر ، وفي جميع أدوار المدنية يصادف أمثال هؤلاء الرجال

---

(١) في مقال له منشور في كتاب العالم العربي مقالات وبحوث ج٢ ص ١٤٩ .

البسطاء ، وهم في حالة هدوء وسكون ، ولكن ليس بغير زهو ، فينكرون بسلامة جميع الأشياء التي لم يبحثوا فيها ويزعمون أنهم يحكمون على النظام الكوني الذي لا يسبر له غور . مثلهم كمثل نملتين في حديقة تتكلمان في تاريخ أمة ما أو في بعد الشمس عن الأرض ! »

ثم قال كاميل فلاماريون :

« والذين يقولون حاشانا أن نصدق هذه المستحيلات (إثبات الروح) والعلوم (الروحية) لا لا ، نحن لا نصدق إلا نواميس الطبيعة . . . هؤلاء يشبهون قدماء الجغرافيين السذج الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عندما يصلون في رسمهم إلى جبل طارق هذه العبارة (هنا تنتهي الدنيا) ولم يعرفوا أن في تلك الشقة القريبة المجهولة يوجد من الأرض ضعف ما كان يعلمه أولئك الجغرافيون الجسورون في ذلك الحين .

إن كل ما نعرفه من العلوم الإنسانية يمكن أن يشَبه بجزيرة صغيرة محاطة بأوقيانوس لا ساحل له » .

وقال في ص ٧٥٠ :

« المشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحاني محقق كتحقق العالم المادي المدرك بحواسنا الخمس » .

وقال العلامة الشهير (هنري سيد جويك) المدرس بجامعة كمبردج ، وهو يعتبر أكثر أخوانه العلماء تشككاً ، قال في خطبة رئاسة جمعية المباحث النفسية سنة ١٨٨٢ :

« من الأمور الفاضحة أن يتناقش إلى الآن في صحة هذه الحوادث (الحوادث الروحية) التي أعلن تصديقه بها عدد عظيم من الشهود الأخصائيين ، واهتم غاية الاهتمام بحل مسألتها عدد آخر منهم ، وأن يحتفظ العالم العلمي مع كل هذا حيالها بالإنكار الساذج »[١] .

(١) هذه الأقوال المتعلقة بالروح منقولة عن كتاب على أطلال المذهب المادي ج٣ للعلامة فريد وجدي رحمه الله وهو كتاب مفيد جداً .

الأحلام دليل وجود الروح :

هذا ـ وقد جاء في مجلة المختار (يونية ١٩٥٨) مقالاً بعنوان: ماذا يقول العلم عن الأحلام، كتبه عالم كبير يقدم تفسيراً مثيراً لرؤى المستقبل الخفية . وقد ذكر كاتبه العالم م. ب راسين عشرات الحوادث التي أثبتتها الأحلام التنبؤية خلافاً لآراء فرويد وغيره من الماديين ثم ختم مقاله بالعبارة التالية :

« وهكذا كشفت البحوث العلمية التي استحدثت بوساطة الأحلام التنبؤية عن حقيقة جديدة في شأن العقل البشري ، وإنه لكشف جوهري من شأنه أن يحدث ثورة فعالة في أساس الفكر البشري الشائع ، ولعل أهم حقيقة بزغت من ذلك هي : إن في شخصية الانسان مظهراً لا تحده المسافات ولا الزمن في عالم المادة. ومن ثم فهو اعتراف بمظهر لا جسدي ، أو هو الروح. أما حدودها وقدراتها للنمو فلا تزال خارج حدود قوتنا الفكرية الحاضرة » .

وقال الدوس هكسلي في كتابه الوسائل والغايات ص ١٨٠ :

« . . . يعتقد بعض العلماء أن العقل ليس إلا مظهراً من مظاهر المادة ، يشبهها في كل صفاتها . وأن المخ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء ، وأن النشاط العقلي كله يمكن تفسيره بالأفعال الشرطية المنعكسة . والعقل عندهم ليس سوى آلة تكونت أثناء التطور للحصول على الطعام ، ولإرضاء الرغبة الجنسية ، ولتوفير أسباب البقاء .

ويرى آخرون على العكس من ذلك ـ أن العقل لا يمكن إدراكه عن طريق المادة التي هي من خلق العقل ، وإنما المرء لديه نوع من « الوعي » يمكنه من إصدار الحكم الصحيح على طبيعة العالم . فأي هذين الفريقين على صواب ؟

إن البحث الحديث في الطب وفي علم النفس التجريبي قد ألقى ضوءاً على طبيعة العقل ، وعلى قيمته في العالم . يعتقد الأطباء أن كثيراً من حالات المرض ينشأ عن حالات عقلية خاصة ، فالعقل كثيراً ما يجب أن يصاب صاحبه بعلة من العلل ، أو قد يكون العقل مضطرباً فيعجز عن أن يقي البدن شر المرض . ومهما تكن طبيعة العقل فإن مقاومة المرض تتوقف إلى حد كبير على الحالة النفسية للمريض . لقد كان من الأبحاث التي دارت في المؤتمر الأمريكي لأمراض الأسنان

الذي انعقد عام ١٩٣٧ إن فساد الأسنان نفسه قد يكون ناشئاً من أسباب عقلية . وكما أن العقل يسبب العلة فهو كذلك يجلب الشفاء ، ولا شك أن المريض المتفائل أقرب إلى الشفاء من المريض القلق التعس . وقد دلت تجارب التنويم المغناطيسي على أن المنوم يستطيع في بعض الحالات أن يعالج النائم بما لديه من قوة التأثير ، ويستعمل التنويم المغناطيسي كذلك للتخدير فيمكن إجراء العمليات للنائم دون أن يحس .

وأمكن كذلك اثبات انتقال الأفكار ، ورؤ ية الأشياء قبل حدوثها فكيف يتم انتقال الفكر ؟

من الواضح أن هذه العملية تختلف عن انتقال الحديث بالراديو ، لأن قوة الرسالة الفكرية لا تضعف بطول المسافة كما يضعف الحديث المذاع بالراديو . وقد قرر الأستاذ برود أن هناك وسطاً عقلياً محضاً تسبح فيه العقول والأفكار ، ولما كنا نستطيع أن ننظر إلى الشيء قبل وقوعه فلا بد لنا أن نفرض وجود الوسط العقلي مستقلاً عن الجسم وعن ظروف الحياة الجسمية المتصلة بالزمان والمكان . وإذاً فأصحاب نظرية « الوعي » أقرب إلى الصواب من السلوكيين ومن أولئك الذين يعتقدون العقل مظهراً من مظاهر المادة » .

وقد ظل موضوع الروح الشغل الشاغل للعلم والعلماء ، حتى ثبت أن الانسان جسم وروح ، بعد التجارب القاسية التي بدأت بصورة منتظمة ، قوامها العلم عام ١٨٤٦ بدار الندوة بمدينة واشنطون بأمريكا ، وفي انكلترا عام ١٨٦٧ في المجمع العلمي الذي تأسس لهذا الغرض في لندن ، وفي فرنسا عام ١٨٥٧ .

وتقدمت العلوم الروحية في العصر الحديث تقدماً مطرداً وأصبح هذا العلم علماً معترفاً به ، فقد عقد مجلس جامعة لندن للبحث الروحي جلسته الأولى في ٦ مايس (مايو) ١٩٣٤ ، وضم معظم أساتذة الجامعة الأجلاء منهم : الدكتور جود ، ومكنمار ، وماك ، وسيريبل برت ، وفلوجل ، والدكتور هتنجر ، الذي يحمل أرقى شهادات العلوم الطبيعية، والكيماوية والهندسية والكهربائية، وتقدم برسالة لنيل درجة دكتور في الفلسفة عام ١٩٤٠، وكان موضوعها أعمق مواضيع الروحية وعنوان الرسالة: (القوة فوق المدركة).

وفي العام نفسه أنشيء للدراسة الروحية فرع بجامعة كمبردج تحت إشراف العلامة الدكتور برومن ، استاذ الفلسفة ، وحددت هذه الدراسة بأنها تحوي الظواهر العقلية والجسمية ، التي تبدو لأول وهلة كأنها تشير إلى وجود قوى أو أفعال خارقة للعادة في الانسان ، خلال حياته وإلى بقاء عقل الانسان بعد الموت الجسماني ، وبدأت الدراسة فقط في تشرين أول (أكتوبر) ١٩٤١ ، وأنشئت جمعية للبحوث الروحية في جامعة أكسفورد عام ١٩٤٣ ، وأول دراسة رسمية في أمريكا بدأت عام ١٩٣٧ ، حينما تولى الدكتور جون كندي الإشراف على هذه الدراسات في بون ، وميونيخ وبرلين .

وأساس هذه العلوم دراسة ما قرره القرآن من وجود روح للانسان .

هذا ـ ويقرر العلم الحديث أنه قد ثبت ثبوتاً تاماً في معامل الجامعات أن الروح بعد أن تغادر جسدها لها كيانها الأثيري ، والمؤلفات التي كتبت في هذا الشأن كثيرة متعددة ، وكلها تجمع على أن الروح باقية ، وأن الحياة متواصلة بعد الموت ، وأن ما نسميه موتاً إنما هو تطور ، اقتضته حكمة الخبير العليم[١] .

أكتفي الآن بما سبق من الأقوال عن وجود الروح ، ففيها الأدلة الكافية لاقناع اللبيب وإسكات المفتري والجاهل !

عجز الحواس وخطؤها :

ومن العجيب أن ينكر الدكتور عياد الروح ويثبت صحة المشاهدة الحسية في قوله السابق ، بينما التلاميذ الصغار غدوا يدركون مبلغ ضلالها وخطأ أحكامها !

قال العلامة كـاميل فلاماريون :

« . . . نبغ أوغست كونت وليريه وأرادا تحديد الطريق النهائي الحسي للعلم ، فأرادا ألاّ يسلم الناس إلا بما يرونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم ويسمعونه بآذانهم ، وأن لا يحاولوا إدراك ما لا يمكن إدراكه ، وقد صارت هذه قاعدة العلم منذ خمسين سنة .

(١) نقلاً عن كتاب الله والعلم الحديث ص ٢٣٤ .

ثم يقول فلاماريون متهكماً على كونت وأمثاله . . .

« ولكننا بتحليلنا حواسنا وجدنا أنها تخدعنا تماماً ، فإننا نرى الشمس والقمر والنجوم تدور حولنا ، وهو ضلال مبين ، ونحس بأن الأرض ثابتة ، وهو ضلال مبين أيضاً . . . ونعجب بنتائج النور والألوان التي تجلي في نظرنا المظهر البديع للطبيعة ، والحال أنه لا يوجد ضوء ولا لون ، ولكن حركات أثيرية معتمة بتأثيرها على عصبنا البصري تعطينا شعورات ضوئية . ونرى أرجلنا تحترق في النار على غير علم منا ، بينما مستقر الشعور بالاحتراق هو في مخنا وحده . . . وبناء على ذلك فحواسنا تخدعنا في حقائق الأشياء حتى اعتقدنا أن الشعور والواقع شيئان مستقلان !

ليس هذا كل ما يقال ، فإن حواسنا الخمس المسكينة ظهر أنها لا تكفي في تعريفنا بالواقع ، فهي لا تشعرنا إلا بقليل من الحركات التي تؤلف حياة الكون[١] . . . »

وقال الدوس هكسلي :

« . . . وقد دلت البحوث العلمية الحديثة على أن العالم الذي ندركه بالتجارب الحسية والإدراك الفطري العام ليس إلا جزءاً صغيراً من العالم بوجه عام ، وهو جزء صغير منه ، لأننا نعيش في نقطة ضئيلة من الكون الواسع ، ومعرفتنا بالأجزاء النائية من الكون ضيقة محدودة . ثم أن الأعضاء التي نستخدمها في الاتصال بالعالم الخارجي لا تستطيع فهم الحقيقة كلها . وحتى إن استطعنا أن نقوم برحلات كشفية في الكواكب فسنظل عاجزين عن أن ندرك من الذبذبات الكهربائية المغناطيسية ما هو أقصر من البنفسجة أو أطول من الحمراء ، وسنظل عاجزين عن رؤية الجزئيات أو الأحساس بها برغم حجمها الكبير . ولا نستطيع أن ندرك الحد الأدنى من وحدة الزمن ، وسنظل محرومين من تلك الموهبة التي تعين الطيور المهاجرة على معرفة الاتجاه الصحيح »[٢].

ولو كانت قيمة المخلوق بحواسه ، لكان الكلب بسبب حاسة شمه القوية ، جديراً بتبوّءأعظم المراتب العلمية !!

---

(١) على أطلال المذهب المادي ص ١١ - ١٢ ج٢.
(٢) نقلاً عن كتاب الوسائل والغايات ١٧٩ .

وقال شارل ريشه المدرس بجامعة الطب الفرنسية : « إن حواسنا من القصور والضعف على حال يمكن معها أن يفلت من شعورنا الوجود كل الافلاك » .

***

ذكرت قبل صفحات دعوى الدكتور عياد بأن الغربيين يسعون لئلا نقتبس الحضارة الحديثة . . . »

فهل ما يقوله الدكتور كامل صحيح ؟!

الحق إن هذا الأستاذ يحاول اغراءنا واستهواءنا بقوله السابق لنندفع بكليتنا نحو معشوقته الحضارة الحديثة وترك عقيدتنا الإسلامية .

ومن أجل أن نثبت خطأه في هذا الموضوع ننقل الفقرة التالية للدكتور محمد محمد حسين أستاذ الأدب العربي بجامعة الأسكندرية الذي ردّ على مقال عياد السابق رداً مفحماً[1] .

يقول كرومر بعد كلام طويل عن الوطنية المصرية وصف في ختامه المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها سعد زغلول بأن برنامجها يقوم على التعاون مع الأوربيين ـ لا على معارضتهم ـ في إدخال المدنية الأوربية إلى بلادهم ، ونصح بأن يمنحوا كل تشجيع ممكن ، ويقول كرومر : إن اختيار سعد زغلول لمنصب وزير المعارف ليس إلا تنفيذاً لسياسة ترمي إلى تأييد هذه المدرسة ، ووضع مقاليد السلطة في يدها ، ثم يقول عقب ذلك ما نصه : (وسوف نراقب ما تتمخض عنه هذه التجربة من آثار في عناية وانتباه . فإذا نجحت التجربة ، وذلك ما آمله وأعتقده فسوف نمنح قدراً أكبر من التشجيع للسير في الاتجاه نفسه إلى مدى أبعد . أما إذا فشلت التجربة ، فستكون النتيجة الحتمية لذلك هو الاعتماد في شؤون الإصلاح على الأوربيين ـ وعلى الانجليز خاصة ـ إلى مدى أكبر مما جرى عليه العمل سابقاً . وأية ما كانت الحال فلن يكون هناك سبيل إلى التراجع ، إن العمل يسير بجد ونشاط في إدخال المدنية الغربية إلى مصر ، وهو يأخذ طريقه بتقدم ونجاح في كل

---

(١) مجلة الأزهر ج٨ س ١٣٧٧ هـ .

إدارة من إدارات البلد ، حسب خطة مرسومة وضعت خطوطها بعد دراسة للموقف ، تقوم على التطور والتدرج لا على الانقلاب العنيف والتغيير المفاجىء - الفقرة الثالثة من تقرير سنة ١٩٠٦ ص ٨ من النسخة الانجليزية). ولو شئت لقدمت كثيراً من الأمثلة التي تدعم هذا النص الذي قدمته ، ولكن أظن أن فيه الكفاية لاثبات ما بذله الاستعباد الغربي في سبيل نشر أسوأ ما في حضارته وإحلاله محل الإسلام في كل مستعبداته ويسمون صنيعهم هذا نشر « الحضارة » ويزعمونه « رسالة الرجل الأبيض » التي لا يملون من الحديث عنها ، ولكن الذين حالوا بين الناس في مستعبداتهم وبين الوصول إليه هو الأخذ بأسباب القوة ، أو بعبارة أخرى الجانب المثمر المفيد من هذه الحضارة .

الروحانية غير الصوفية :

أما الروحانية التي يحاربها الكاتب (عياد) عن جهل ، لأنه يزعم أن الاستعباد الغربي يشجعها ، فهي شيء آخر غير الصوفية التي جاء ذكرها في قصة مندوبِ روكفلر مع الجامعة السورية ، فالصوفية مذهب غير إسلامي في كثير من تفاصيله وشطحاته وتقاليده ونظمه الدخيلة ، أو هو يبدو كذلك فيما هو مشهور عن كثير من فرقه التي تدعو إلى سلبية بائسة مستسلمة تعارض روح الإسلام معارضة صريحة ، وهو شيء آخر غير الزهد الذي عرف عن بعض الصادقين من الصالحين في صدر الإسلام خاصة وفيما تلا ذلك من العصور » .

لماذا يشجع الغربيون التصوف الهدام في بلادنا ؟

ومن هنا ندرك البواعث الخفية التي تجعل الأوربيين يرتاحون إلى تشجيع التصوف ، ويعنون بإنشاء المعاهد له وتأليف الكتب عنه ونشرها بين المسلمين ، فهو يحقق لهم عدة أغراض في آن واحد :

أولاً : يلهي المسلمين عن أمر دينهم الحق وصرفهم عن طابعه الأصيل من جهاد وتضحية .

ثانياً : إنه اعتراف ضمني بامتداد سلطان ديانة الأوربيين على المسلمين لأن التصوف يوناني الأصل ! . . .

ثالثاً : يضمن للغربيين حالة من الجمود والضعف والبلادة يريحهم من عملاق الإسلام القوي المجاهد : يقول الجنيد ، وهو شيخ الصوفية الذين يسمون أنفسهم معتدلين : « أحب للمبتدىء ألا يشغل قلبه بهذه الثلاث ، وإلا تغير حاله : التكسب وطلب الحديث (كذا) والتزوج واحب للصوفي ألا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه[1] .

رابعاً : إنه يهون الظلم والاستعمار على المسلمين بنشره بينهم نظرية وحدة الوجود وبيان أن الله تعالى قد حل في الجميع فلا يحق اعتراضه ، بل الرضاء والقبول .

الرب عبد ، والعبد رب   يا ليت شعري من المكلف
إن قلت : عبد فذاك رب   أو قلت : رب ، أنى يكلف ؟!

ومع كل هذا نجد بعض الناس يشيدون بالتصوف وحجة ذلك أن الأوربيين أنفسهم يشجعونه ويعظمونه !!

فلسفة الاستعمار :

ويحسن بنا أن نذكر القارىء الكريم بهذه المناسبة أن المهمة التي كان يسعى لتحقيقها الاستعمار في مصر وسورية والعراق وغيرها من الأقطار العربية والاسلامية تتمثل في خطة كرومر واضحة وتقوم على شقين :

أولاً : توليد الشكوك في نفوس أبناء العروبة بما عندهم من الدين وما فيه من مثل روحية وحضارية تهدد استعمارهم .

ثانياً : إيجاد روح الثقة العمياء بالحضارة الغربية ، ويؤسفنا أن نقول أن هذه المهمة لم تعد اليوم ملقاة على عاتق المستعمرين ، فقد كفاهم مؤنة القيام بها ، هذا الجيل الناشىء في حضارتهم الذي تحقق فيه أغراض خطتهم الخبيثة الإجرامية .

ولا شك أن قيام الغربيين بهذه المهمة لا يساعد على تحققها ، كما يساعد عليه قيام ناس من أبناء جلدتنا ، لأن الأوربيين متهمون ، وهؤلاء ـ مع الأسف ـ مؤتمنون من بعض الجهات المغرورة بهم !

---

(١) راجع قوت القلوب لأبي طالب المكي ص ١٣٥ ج٣ وكتاب : هذه هي الصوفية .

ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نذكر أن كثيراً من رجال الفكر[1] أيام كرومر قد قاموا يناهضونه كالمنفلوطي وحافظ والغلاييني رحمهم الله .

كيف يحاولون وضع النظام العقائدي !

وبعد أن قرر الدكتور حكمت - دون خجل ولا تردد - ضرورة إيجاد مذهب عقائدي للأمة العربية ، راح يبحث عن كيفية وضع هذا المذهب بالسهولة التي تصنع فيها الفلافل !

قال : « فنتساءل كيف السبيل إلى التماس هذا المذهب ؟ وأنا أعترف أن الجواب (على) هذا السؤال في غاية العنت والحرج (مرحى لهذا التواضع) فالناس يطمعون أن يحمل إليهم مذهب جديد كل الجدة ، مبتكر كل المبتكر ، ومطلب من هذا لا يجود به الدهر إلا في الندرة النادرة ، لأن عمالقة الفكر البشري الذين كانت لهم مذاهب رئيسية شاملة لا يتجاوزون أصابع الكف عداً ، ولم تجر العادة أن ترتجل الإنسانية العبقريات الجبارة كلما دعت الحاجة إلى « تراكيب » كونية شاملة . غير أننا إذا عرفنا أن نكون متواضعين في مطلبنا ، استطعنا أن نجد حلاً معقولاً ، ومثل هذا الحل كامن في « النزعة الانتقائية » التي تميز بها تفكيرهم حتى في عصورهم الزاهرة ، ومعلوم أن هذه النزعة إنما تقوم على الاختيار والاصطفاء وحسن التأليف بين العناصر . وإذا جاز لنا أن ندلي بدلونا بين الدلاء تعرضنا لبعض النقاط التي تعيننا على نوع من الإطار يصلح أن يحيط بأنحاء شعورنا وفكرنا وعملنا في دنيانا العربية » .

يخطىء حكمت حتى في علم النفس !

أما قول الأستاذ حكمت « إن الناس يطمعون أن يحمل إليهم مذهب جديد كل الجدة مبتكر كل الابتكار » فكلام تنقصه الحقيقة العلمية ، فإن الناس أبعد ما يكونون عن الرغبة في قبول الجديد في التقاليد التي يتمسكون بها ، وطالما لاقى الرسل والمصلحون العنت والحرج في تغييرها ، وقد قال شوقي :

---

(١) أرجع إلى كتاب:أصداء الدين في الأدب الحديث تأليف سعد الدين الحمزاوي ، والإسلام وروح المدنية (الإسلام وكرومر) للمرحوم الغلاييني .

والـناس في عــداوة الجــديــد   وقبضة الأوهام من حديد !

إن التقاليد والمذاهب كالعادات ، وكم يتحدث علم النفس الذي يمارسه الأستاذ حكمت في كلية التربية عن صعوبة تغييرها واستئصالها مما يعرفه طلاب الشهادة الثانوية .

وكم يكون دور المهووسين والمهسترين مخيفاً ، لو كان الناس يطمعون بالمذاهب الجديدة ويسارعون إلى اعتناقها على الدوام .

ولما يئس الدكتور حكمت من الأتيان بالجديد ، لأن ذلك من عمل عمالقة الفكر ! راح يلجأ إلى طريقة الترقيع والتسول والاستجداء ، فسماها (بالنزعة الانتقائية التي تقوم على الاختيار والاصطفاء وحسن التأليف بين العناصر) .

من الذي سيختار ويصطفي هذا المذهب الخطير ؟

طبعاً الدكتور حكمت وأمثاله ! .

ومن الذي سيفرض عليهم ما اختاره وما اصطفاه دكتورنا ؟

طبعاً الأمة العربية بأسرها !

إنه اعتزاز عظيم بالنفس ، ومع كل هذا يقول السيد حكمت: « غير أننا إذا عرفنا أن نكون متواضعين في مطلبنا »!

خلو نظام حكمت من الاحترام والقدسية !

إنني أعتقد أن الدكتور نفسه سوف يستهين بهذا المذهب الذي يوضع من أمثاله ويكون (لقيطاً) من هنا وهناك وهنالك !

إنه لا بد للمذاهب مهما سمت من قدسية كي تتبع ؟ وأين القدسية في مشروع الدكتور ؟ إن عمالقة الفكر الذين جاؤ ونا بالمذاهب من عند أنفسهم بقيت في الكتب ـ في الكتب فقط ـ حيث استطاعوا أن يمذهبو ها وحدها . أي بقيت حبراً على ورق ! فكيف بغيرهم ؟!

إن الذين وضعوا مبادىء الديمقراطية في بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا قد داسوا عليها بأقدامهم ، والذين وضعوا النازية والفاشية وفرضوها فرضاً على شعوبهم بالقوة قد ذهبوا ضحيتها !!

ثم أين الشمولية في هذا المشروع (الملقح) والدكتور ـ واضعه ـ قد سها عن طبيعة التقاليد كما سها عن كثير من الأمور الأخرى كما سنرى !

ما هي عناصر نظام حكمت العقائدي المبعثر ؟!

والآن وقبل أن نستمع إلى الدكتور حكمت يحدثنا عن النقاط التي تصلح لتحقيق هذا النظام العقائدي للأمة العربية ، يجدر بنا أن نلفت أنظار القراء المحترمين إلى أنه كان ينبغي له قبل الكلام عليها أن يوضح لنا الأساس الذي يوجهه في عملية الانتقاء ، وبذا جاءت (ايديولوجيته) أشلاء ممزقة لا رأس لها ولا روح فيها ينظمها . إن الطاهي مهما كانت طبخته بسيطة ، لا يفكر في جمع عناصر ومواد طبخته قبل أن يكون قد فكر مسبقاً بالأساس الموجه له في عملية الجمع والانتقاء !

النقطة الأولى ضلال فاضح !.

قال الدكتور حكمت :

« إن أولى هذه النقاط هي الإيمان بالعقل وبقيمة العلم التجريبي . . ومعنى ذلك أن نهجر إلى غير رجعة كل ما أثبت هذا العلم الايجابي استحالته وتناقضه وعبثه من الخرافات والضلالات والأباطيل والأساطير . إن عالمنا الحاضر عاد لا يتسع للسحر ولا للشعوذة ولا للحزر ولا للتخمين . وأساليب العلم طغت على جميع ميادين المعرفة ، فلم تلج هذه الأساليب في الفيزياء والكيمياء ، فحسب ، بل خرجت عن حيز المادة الجامدة لتنفذ إلى حظيرة المعنى الخالص . أفلسنا نرى البيولوجيا تغزو أسرار الحياة (كذا) أو لسنا نرى ميادين النفس والاجتماع قد دُكت حصونها واحداً بعد واحد (!!) أمام فتوحات الطريقة العلمية ؟ أولسنا نرى الانسان وهو مسلح بسلاح هذه الطريقة العلمية عاد لا يتهيب عثرة في منحى من مناحي المعرفة مهما بلغ من التعقيد ؟ »

لا شك أن الدكتور حكمت لا يريد بالخرافات والضلالات والأباطيل والحزر والتخمين ما لحق بالإسلام من رواسب الأوهام والخرافات والبدع التي ليست منه والتي ينبغي محاربتها ومحاربة تجارها ومروجيها . إنما قصد بها الإسلام نفسه وخشي أن يصرح به صراحة ، ولكن لا مجال لانكاره ما دام يقول :

« ومعنى ذلك أن نهجر إلى غير رجعة كل ما أثبت هذا العلم الايجابي استحالته . . . إن عالمنا الحاضر عاد لا يتسع . . . للحزر ولا للتخمين » .

ولما كان العلماء التجريبيون القاصرون يقولون باستحالة الدين ، فكان هو المقصود من الضلالات والأساطير والسحر والشعوذة في مقال الدكتور .

نحن لا نود مهاجمة الدكتور ، فهو حر في أن يعتقد ما يشاء ، ومنذ القديم عبد الناس الفرج والنار والحجر والبقر ! إنما نود أن نكشف عن محاكمته وقوة تفكيره الذي يهاجم به من وراء ستار نظامنا العقائدي ويريد أن يحل محله نظامه الممسوخ !

أين وجه الضلال والخطأ ؟ .

إن قوله : أن نهجر إلى غير رجعة كل ما أثبت هذا العلم الايجابي استحالته تناقضه، وعبثه، فهو خطأ وضلال من وجوه :

١ ـ إن العلم التجريبي لا يبحث في قضايا ما وراء الطبيعة بحجة أنها ليست من اختصاصه .

قال العلامة (ليتره) وهو خليفة (أوغست كونت واضع الفلسفة الوضعية) في كتابه (كلمات عن الفلسفة الحسية) بعدما رجع عن كثير من آرائه السابقة :
« بما أننا نجهل أصول الكائنات ومصائرها فلا يجوز أن ننكر وجود شيء سابق عليها ، أو لاحق لها ، كما لا يجوز لنا أن نثبت ذلك ، فالمذهب الحسي يتحفظ كل التحفظ في مسألة وجود العقل الأول لاقراره بجهله المطلق في هذا الشأن ، كما أن العلوم الفرعية التي هي منابع للمذهب الحسي يجب عليها أن تحترس من الحكم على أصول الأشياء ونهاياتها » .

٢ ـ إن العلم التجريبي الذي يفخر به الأستاذ حكمت ويتخذه مقياساً ثابتاً وحكماً في القضايا الدينية ، قد أثبت اليوم عجز نفسه وقصوره .

قال شارل ريشه المدرس بجامعة الطب الفرنسية والعضو بالمجمع العلمي :

« يجب على الانسان مع احترامه للعلم التجريبي المعاصر أن يعتقد بقوة أن هذا العلم مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصاً نقصاً هائلاً ! . . .

إذا سألنا رجلاً بربرياً ، بل لو سألنا فلاحاً غربياً أو قروياً أجنبياً عما يعلمه من قوى الطبيعة وجدناه لا يدري منها عشر ما تسرده منها الكتب الابتدائية لهذا العلم في سنة ١٩٠٣ ، ويظهر لي أن علماء هذا العصر سيكونون حيال علماء القرون المقبلة في مثل موقف قروي اليوم أزاء أساتذة كلية فرنسا ! »

ثم قال بعد ضربه الأمثال :

« ثم لماذا لا نصرح بصوت جهوري بأن هذا العلم الذي نفخر به إلى هذا الحد في حقيقته ليس إلا إدراكاً لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت مداركنا ، والطبيعة الصحيحة للنواميس التي تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا » .

قال وليم جيمس الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة :

« . . . كلا ! إن علمنا ليس إلا نقطة ، ولكن جهلنا بحر زاخر ، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه ومن نوع آخر ، لم ندرك خواصه المكونة له إلى اليوم »(١) .

وقال وليم كروكس من أكبر علماء الانكليز ، ومن أعضاء المجمع العلمي الملكي وهو مكتشف أشعاع المادة ، وآلات كيماوية كثيرة ، قال في خطبة له في مجمع العلوم(٢) :

« . . . إن أكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلاً أم آجلاً إلى إهمالهم الكلي لجانب عظيم من رأس مالهم العلمي المزعوم لأنهم يرون أن رأس مالهم هذا وهمي محض » .

٣ ـ لنعيد بعض ما قاله حكمت هاشم :

« . . وأساليب العلم طغت على جميع ميادين المعرفة فلم تلج هذه الأساليب

---

(١) كتاب ارادة الاعتقاد ص ٧٣ .

(٢) كما ورد ذلك في مجمع خطبه ص ٨ .

في الفيزياء والكيمياء ، فحسب ، بل خرجت عن حيز المادة الجامدة لتنفذ إلى حظيرة المعنى الخالص . أفلسنا نرى البيولوجيا تغزو أسرار الحياة ؟ أولسنا نرى ميادين العلم النفسي والاجتماع قد دُكت حصونها واحداً بعد واحد أمام فتوحات الطريقة العلمية » .

إن هذا الادعاء الخاطىء ليقينية العلم التجريبي ودكه حصون الطبيعة واحداً بعد واحد ، افتراه الدكتور افتراء بغية التضليل ، وها نحن أولاء نأتي على شهادات أقطاب العلم التجريبي لاثبات صحة ما ذهبنا إليه .

قال الأستاذ كاميل فلاماريون[1] :

« . . ترانا نفكر ، ولكن ما هو الفكر ؟ لا يستطيع أحد أن يجيب عن هذا السؤال . وترانا نمشي ، ولكن ما هو العمل العضلي ؟ لا يعرف أحد ذلك . أرى أن ارادتي قوة غير مادية ، وإن جميع خصائص روحي غير مادية أيضاً ، ومع ذلك فمتى أردت أن أرفع ذراعي أرى أن ارادتي تحرك مادتي ، فكيف يحدث ذلك ، وما هو الوسيط الذي يتوسط للقوى العقلية في انتاج نتيجة مادية ؟ لا يوجد من يستطيع أن يجيبني عن هذا أيضاً ، بل قل لي كيف ينقل العصب البصري إلى الفكر صور الأشياء الخارجية ؟ وقل لي كيف يدرك هذا الفكر ؟ وأين مستقره ، وما هي طبيعة العمل المخي ؟ قولوا لي أيها السادة . . . ولكن كفى فإني أستطيع أن أسألكم عشر سنين ولا يستطيع أكبر رأس منكم أن يجيب عن أحقر أسئلتي ! ! »

وقال شارل ريشه في كتابه « الظواهر النفسية » :

« إننا نعيش في وسط ظواهر تتوالى حولنا ، ولم نفهم سر واحدة منها فهماً يليق بدرجتها ، حتى إن أكثرها سذاجة لا تزال سراً من الأسرار المحجوبة كل الاحتجاب . فما معنى اتحاد مولد الماء بمولد الحموضة ؟ ومن الذي استطاع أن يفهم ولو مرة واحدة معنى هذا الاتحاد ، وهو يفضي إلى أبطال خواص الجسمين المتحدين وايجاد جسم ثالث مخالف للأولين كل المخالفة ؟ إن العلماء لم يتفقوا حتى الآن على طبيعة الذرة المادية التي توصف بأنها غير قابلة للوزن ، وهي مع ذلك تصير قابلة له متى اجتمع عدد كبير منها .

---

(١) في كتابه (المجهول) ص ٥٧٨ .

فالأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعاً وجريئاً في آن واحد ، متواضعاً لأن علومنا ضئيلة ، وجريئاً لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه ».

ثم ختم مقدمته بقوله :

« فالويل للعلماء الذين يظنون بأن كتاب الطبيعة قد أقفل ، وإنه لا يوجد شيء جديد يحسن تفهيمه للإنسان الضعيف ».

وقال العالم الفرنسي « غوستاف لوبون » :

« . . . لا مشاحة في أن الأصول التي كان العلم يختال بها إختيالاً لم تزل كل الزوال ، بل هي ستبقى أمداً طويلاً في نظر (الدهماء !) كحقائق مقررة ، وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها ، ولكنها قد فقدت كل ما كان كامن الاجلال في نظر العلماء الحقيقيين .

تلك المكتشفات التي نوهت بها آنفاً قد كشفت اللثام عن الظنيات التي بدأت تفضحها الكتب الحديثة ، وبذلك دخل العلم نفسه في دور من الفوضى كانوا يظنون أنه سلم منه إلى الأبد ، وأصبحنا نرى أصولاً كان يظن أنها ذات قاعدة رياضية محققة ، صارت موضوع النزاع بين العلماء . . . . وقد صدرت كتب مثل الكتاب القيم المسمى (العلم والأفتراض) لهنري بوانكاريه تؤتينا بالبرهان على ما نقول في كل صفحة من صفحاتها . فلقد أرانا هذا الرياضي المشهور أننا نعيش وسط الافتراضات والاتفاقات حتى في مجال العلوم الرياضية[1] .

ليت دكتورنا يستطيع أن يقنع بكنـه هذا الكلام إذاً لعرف حده ووقف عنده !

موقفنا من العلم التجريبي

هذا ـ ومهما قلناه عن العلم التجريبي ، فإننا لا ننكر فضله وندعو إليه بحماسة وحرارة ، فإن منهجه من صميم الإسلام ، ولكن ليس معنى هذا أن

---

(١) على أطلال المذهب المادي ج١ ص ٣٩.

نتخذه إمامنا ، فننكر ما أنكره ، وكم أنكر أموراً أصبحت اليوم من اليقينات ، وأقر أصولاً غدت من الخرافات ! فمن واجبنا أن نكون متواضعين دوماً فما اوتينا من العلم إلا قليلاً ولا يجوز بحال من الأحوال تحكيم العقل في قضايا ما وراء الطبيعة، إنما ينبغي أن نؤمن بالغيب كما أمرنا الله سبحانه وأوصانا العلماء الكبار. وقد قال أحدهم : « في الظاهرات العلمية ما يسمى بالفرنسيةConstation ويعني التسليم بحقيقة دون تعليل لها ، وإقامة البرهان عليها ، وإنما لأنها بدت كواقع ملموس لا يمكننا انكاره ، وليست العلة فيه أن لم يتضح مبرره العقلي لنا ، وإنما هي في قصورنا نحن عن إدراك هذا المبرر الذي هو كائن لا محالة يحتاج فقط إلى اكتشاف من جانبنا » .

يجب أن نؤمن بالغيب !

قال انيشتين (إن أجمل الأحاسيس وأعمق العواطف هي تلك التي نتعرض لها عند بحث الخفايا ، لأنها تؤدي إلى العلم الحقيقي ، وكل من ينكر هذه الأحاسيس ولا يتعرض للدهشة أو للرهبة ، فإنه يعتبر في عداد الأموات ! والمؤمنون هم الذين يعلمون أن هناك أشياء تخفى على علمهم ، وهذا هو غاية الحكمة وأقصى درجات الجمال المشع التي لا تستطيع حواسنا القاصرة إدراكها[1] .

وقال العلامة نيلز بوهر :

«إن الناس إما ممثلون أو متفرجون في تمثيلية وجودهم . فالإنسان هو نفسه أكبر اعجوبة غامضة في الحياة ، فهو لا يدرك الكون الغامض الذي يعيش فيه ، لأنه لا يدرك كنه نفسه ، فهو لا يعلم إلا القليل من أمر العمليات العضوية في جسمه ، ويعلم الأقل من ذلك في شؤون عقله وقدرته على فهم الدنيا التي تحيط به ، بل أن قدرته محدودة في التعليل وفي التخيل ، بل أنه يكاد يكون عاجزاً عن أنبل وأعجب خصائصه ، إلا وهي قدرته على السمو بنفسه وإدراك كنهها في عملية التصور والتخيل »[2] .

---

(١) العالم وانيشتين ص ١١٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٧ .

وقال نيوتن : « ليقل عني الناس ما شاؤوا . أما أنا فإن مثلي مثل الأولاد الذين يلعبون على ساحل البحر مدهوشين بصدفه وحصبائه دون أن يدركوا سبر أغواره » .

لنقارن بين هذه الآراء التي سمعناها من فحول العلماء ، وبين ما زعمه الدكتور حكمت في آرائه السابقة، وبعد هذه المقارنة يحق للقارىء أن يعطي الحكم الذي يريده على هذا الدكتور! وعلى أمثاله من الدكاترة الذين ابتلي الوطن بهم فلا يعجبهم شيء . قد أصابهم الغرور والعجب وأخذوا يتحدثون عن الكون وعن الانسان وعن المثل الأعلى بالبساطة والسهولة التي يمسح المرء بها ملابسه !!

إنهم يخرجون علينا كل يوم بآراء وأفكار تذكرنا بالآراء والخواطر التي تخرج من الحانات !! ومن السكارى في أواخر الليل ! .

النقطة الثانية من نظام حكمت جهل مطبق !

ثم انتقل الدكتور حكمت إلى النقطة الثانية التي يود أن يبني عليها الأيديولوجية العربية !

« والنقطة الثانية هي إيماننا بأصالتنا كعرب . فنحن أمة لنا لغتنا العربية ، ولنا أدبنا العربي ، ولنا ميراثنا الروحي العربي ، ولنا آدابنا العربية وتقاليدنا العربية ولنا طبعنا العربي القومي الخالص . ومهما ما حك المماحكون فرجعوا يغوصون ، في أغوار التاريخ على أصولنا الكلدانية والآشورية والفينيقية والفرعونية والبربرية وما لست أدري من أرومات وجذور وجراثيم ترجع إلى عهود (المستحاثات العدملية) فما لا ريب فيه أن الواقع يدلنا على أن الناس في مشارق الأرض ومغاربها أصبحوا لا يعرفوننا اليوم . . . إلا بالشعوب العربية والدول العربية ، فأقل ما يجب علينا في حق أنفسنا أن نعرف لأنفسنا أننا الأمة العربية . . . »

إن الدكتور حكمت الذي رشح نفسه لوضع منهاج عقائدي للأمة العربية ! يعتقد ـ كما يريد المستعمرون والشعوبيون ـ أن الكلدان والفينيقيون والفراعنة . . . هم غير عرب نشأوا في بقعة من الأرض غير الجزيرة العربية ، ليثبتوا لنا وللملأ أننا أمة مستعمرة (بفتح الميم) وأن الاستعمار أصيل في دمائنا ،

فراح السيد حكمت يؤكد هذا المعنى البغيض فتبرأ من الأقوام القديمة التي نسبها جهلاً إلى (عهود المستحاثات العدملية) كما تبرأ منهم قبله زميله الدكتور كامل عياد . في كتابه (دروس التاريخ العام)!!

ثم راح الدكتور حكمت يثبت أننا عرب بحجة قوية (وقوية جداً) لا نغبطه عليها :

« فما لا ريب فيه أن الواقع يدلنا على أن الناس . . أصبحوا لا يعرفوننا اليوم إلا بالشعوب العربية وبالدول العربية . . . »

هنيئاً للدكتور بهذا الاستنتاج الضخم ، فقد برهن على أننا عرب بهذا البرهان القوي الناصع . ولو أن هؤلاء الناس عرفونا بالشعوب التركية - كما كانت أوروبا تطلق علينا أيام الحكم العثماني - لانقلبنا تركاً بلمحة عين ! ما دام المقياس والمعيار هو رأي الناس فينا !!

وكذلك ينبغي أن نبقى شعوباً عربية ودولاً عربية (لا شعباً عربياً واحداً ودولة عربية واحدة) ما دام هؤلاء الناس قد عرفونا بهذا الوضع الممزق !

هل الكلدان والفينيقيون غزاة لبلاد العرب ؟

« وأشهر القائلين بأن هؤلاء الأقوام القديمة ليسوا بعرب هو الأستاذ (جويدي الكبير) الايطالي .

ودليله في ذلك كثرة الأمواه في هجاتها الأولى مما لا يتوفر في الجزيرة العربية . وهذا الرأي ضعيف لا يقوم بالحجة الناهضة . . . فالمروج الفيحاء والبقاع المخصبة لم تكن مجهولة قط في جنوب الجزيرة ولا في جوانبها الشرقية الشمالية عند البحرين ووادي اليمامة ، وهي البقاع التي مرَّ بها المهاجرون من قديم الزمن تارة إلى البحرين، إلى ما بين النهرين وبادية الشام، وتارة من البحرين بداءة إلى ما وراءها من المشارف الشمالية .

ولم تزل بقاع اليمامة إلى ما بعد الإسلام مشهورة بالمراعي الواسعة ، والعيون الثرارة والأمطار الغزيرة والمروج المعشبة التي تخلفت مما هو أخصب منها وأعمر بالانسان والحيوان في أقدم الأزمان . وقد لاحظ الرحالة الألماني شوينفرت

أن القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجدت في حالتها لابدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأنس في مصر والعراق .

وتبين الكشوف العلمية في العهد الأخير أن الجزيرة العربية تعرضت لأدوار الجفاف والطوارىء والزلازل منذ عصور موغلة في القدم [1]. »

وذكر المؤرخ الايطالي « ماريني كيتاني » أن الجزيرة العربية لم تكن بلاقع ، بل كانت جنات تجري فيها الأنهار وتميس بالرياحين والغابات قبل نيف وعشرة آلاف سنة . . .

وأيد ذلك المستر « فيليبي » بعد أن رحل إلى الربع الخالي وعثر على آثار مدن ومعالم طرق معبدة وسواحل لبحيرات عظيمة ومستحاثات لحيوانات بالية وعظام فواقع لا تعيش إلا في الأنهار والسواحل الظليلة .

وقال مثل ذلك البحاثة الانكليزي (برترام طمث)[2].

وذهب العلامة (سابس) الانكليزي أن قبيلة من الساميين يقال لها كلدة كانت نازلة عند مصب النهرين وأنها طليعة قبائل النبط والآراميين الذين نزحوا من شمال بلاد العرب ونزلوا القطر البابلي مخيمين على ضفاف الفرات ، وإنهم كانوا يتكلمون اللغة الكلدية . وقال الأستاذ انستاس الكرملي في مجلة لغة العرب ٢ /٥٧٨ : كلدة شيخ عربي هو مؤسس دولة الكلدان[3].

وقال باتون : « ثم أن بلاد العرب عادت فغصت بأبنائها . . . فكانت الهجرة الأمورية الكنعانية (أي الفينيقية) حول القرن السادس والعشرين قبل الميلاد ، وأيد هذا القول (أرنو) والرحالة اليوناني سترابون بدليل تشابه الآلهة وأسماء المدن في الخليج العربي والساحل الفينيقي[4].

شهادة القرآن والحديث عن موطن العرب

وما لنا نذهب بعيداً من أجل اثبات خصب بلاد العرب القديمة وهذا الاسلام يتحدث عن ذلك .

---

(١) بتلخيص عن كتاب الأستاذ عباس محمود العقاد .

(٢) التربية الاسلامية ج١ ثانوي ص ٢٢ .

(٣) اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب للأستاذ محب الدين الخطيب ص٧.

(٤) المصدر نفسه ص ١٠ .

قال الله تعالى :

﴿ لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثلٍ وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ؟ ﴾

وقال النبي ﷺ : في حديث صحيح رواه مسلم .

« لا تقوم الساعة . . . . حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً »

ما أروع هذا الحديث الشريف فقد بدأت بشائره تتحقق في الجزيرة العربية إثر اكتشاف البترول فيها! .وكلمة (تعود)فيه تفيد أن الأقطار العربية كانت ذات أمواه وبساتين .

والغريب أن هذا الدكتور المتظاهر بحب العروبة في هذه النقطة ، لم يكتف بطمس روحها وعقيدتها ، بل راح يستعمل كلمة ايديولوجيا الأعجمية ، وفيها دلالة على ما في نفسه من روح غربية وإلا فما أوسع اللغة العربية وأدق دلالتها وألفاظها !

النقطة الثالثة : جهل التراث العربي :

ولنتحدث بعد ذلك عن العنصر الثالث الذي يود الدكتورحكمتأن يجعل منه نظامنا العقائدي !

« والنقطة الثالثة هي أن تظل قوميتنا مفتوحة فلا تقبع في حدود أنانية مستأثرة مغرورة ، إن الضابط للأصالة العربية كيلا تنحرف فتتردى في مهاوي الفاشية أن تظل على صلة بالإنسانية ، فلا بد لها أن تعتنق المثل العالمية العليا المتسمة بالشمولية الكونية . ومعنى هذا أنه ينبغي أن نؤمن بحقوق الإنسان المنبعثة من كرامته البشرية ، ولهذا يجب أن نتعلق مثلاً بالحرية في جميع أشكالها (حرية القول والاعتقاد والتفكير) وبالمساواة التامة في الحقوق دون تمييز لاعتبار ما ، وبالتسامح وبالعدالة الاجتماعية . وبالأجمال يجب ألا تتنافى مفاهيمنا القومية بحال والمثل العليا الدولية العامة ، وذلك تحقيقاً للتضامن البشري » .

ما هذا الفتح المبين والاكتشاف العظيم الذي جاءنا به الدكتور وحاول نسبته إلى أساتذته الغربيين ، وهو ـ كما يعرف ويتجاهل ـ من وضع الاسلام . فإن هذا التشريع العظيم أول من حارب العنصرية التعصبية والعرقية الضيقة التي أوجدت الفاشية والنازية ، وهو أول من وضع حقوق الإنسان كحرية القول والاعتقاد والتفكير ، والملكية . . . وأول من حقق العدالة الاجتماعية باعتراف مفكري الغرب المنصفين . وقد ذكر العلامة شاكر الحنبلي رحمه الله أن القائد الفرنسي لافاييت قال وقد التفت إلى الشرق ـ لما أعلنت الثورة الفرنسية حقوق الإنسان ـ : تحية لك يا محمد العظيم فقد أتيت بحقوق الإنسان كاملة لأول مرة ؛ وقد حدثني الدكتور الأستاذ معروف الدواليبي أنه يوجد في سويسرا شارع باسم أبو زيد ، وذكر في ترجمته أنه عالم عربي كان أستاذ جان جاك روسو فيلسوف الثورة الفرنسية !

ومن أغرب ما في هذه النقطة الثالثة قول الدكتور في نهايتها :

« وبالاجمال يجب ألا تتنافى مفاهيمنا القومية بحال والمثل العليا الدولية العامة ، وذلك تحقيقاً للتضامن الاجتماعي » .

ما هي هذه المثل العليا الدولية العامة يا دكتور التي نصحتنا بالتمسك بها ؟!!

أهي التي في هيئة الأمم المتحدة أم التي في مجلس الأمن وغيرهما وأنت تعلم أن هذه الدوائر المجرمة الكاذبة هي التي أجلت قومك العرب من فلسطين وشردتهم وسلمت بلادهم لشذاذ الآفاق وعصابات الغدر والشر ؟!!

وهي التي تقر الحالة في الجزائر وعُمان حيث يذبح قومك بالألوف بأسلحة الانكليز وأسلحة أساتذتك الفرنسيين واضعي حقوق الانسان المزيفة تدعمهم الولايات المتحدة التي يخيم عليها تمثال الحرية !!

كم تكون منصفاً أيها الدكتور لو قلت : يجب ألا تتنافى مفاهيمنا القومية بحال والمثل العليا الإسلامية التي جعلت من العرب أمة متمدينة بأعجوبة خارقة أطلق عليها مفكرو الغرب اسم (المعجزة العربية) ولكنك لم تقل ذلك .

إن كثيراً من أساتذتنا الذين تسمموا في ديار الغرب وبثقافته ، يعتبرون

الكلام على الإسلام رجعية لذا نراهم يتحاشون عن ذكره ويسقطونه من حسابهم جهلاً منهم بعظمته .

وهذه المؤامرة على الإسلام التي يتزعمها التقدميون المزيفون مدبرة في عواصم الدول الاستعمارية لصرفنا عن الاسلام مصدر قوتنا ، وتحويل قافلة الأمة إلى مهاوي الأهواء والشهوات ، بغية أضعافنا وقتل معنوياتنا ، ليسهل افتراسنا من قبل ذئاب الاستعمار !

هذا ما يجري في البلدان العربية في شأن الاسلام ، ولنسمع إلى بعض ما يجري في الغرب الذي يعتز بنصرانيته ويبشر بها على نطاق واسع بأساليب سخيفة ومضحكة معتبراً ذلك من التقدمية ، والتقدمية الراقية من ذلك براء !!

ذكر الدكتور محمود عزمي[1] أنه دعي إلى حفلة ساهرة بناء على دعوة من أساتذة جامعة أكسفورد في أعظم فندق من فنادق لندن ، وقد حضر الاحتفال كثير من الزعماء والرؤساء وما كاد يأتي موعد افتتاح الحفلة حتى قام استاذ يعلن قائلاً : إن جماعة أكسفورد قد قررت أن تقيم لها في لندن اسبوعين تنتقل اجتماعاتها خلالها بين أبهاء فنادقها الضخمة ودور العظيمات والنبلاء ، وإن كل اجتماع ستتخلله ادلاءات بحوث مادية وقعت لأصحابها الذين جاؤوا يدلون بها خصيصاً وستعقبه سهرات تقدم فيها المرطبات والموسيقى !

وتوالى المتكلمون على المنصة شيوخاً وقورين وسيدات جليلات وآنسات متأنقات وشباناً متحفزين ، وأخذوا يقصون علينا نوادرهم ، (وهي نوادر لا يدلي بها الأطفال بله اساتذة الجامعة !)

تلك آنسة غادرت أمريكا وجاءت إلى لندن تبحث لها عن عمل فلم تجد واحتملت الضيق . . . فخطر لها خاطر (التفكير في المسيح) ففكرت ونامت ليلتها ثم استيقظت ، فإذا بها تستلم في البريد صكاً بسبعين جنيهاً لا تدري من أين جاءها !

وذلك شيخ من أصحاب المكانة السياسية في الامبراطورية وإذا به يتسلم

---

(١) راجع كتابه خبايا سياسية ص ١٠١ وما بعدها باختصار.

برقية من بعض أصدقائه السياسيين في جنوب إفريقية يستحلفونه أن يقصد إليهم على عجل حتى يوفق بين مختلف تياراتهم ، فيحضر اجتماعاً من اجتماعات اكسفورد ترفرف عليه « روح المسيح » ويقصد إلى إفريقية الجنوبية في إحدى البواخر ، فيجد في انتظاره على الميناء عدداً من رجال السياسة يحيونه ، فيذهب على الفور إلى أحد الفنادق ويجتمع بالأحزاب ولا ينفض اجتماعهم إلا والأخاء مستقر في قلوبهم . . . وكل ذلك بفضل : « تفكيره بالمسيح » .

وهذا شاب من كلية أكسفورد ، وكان لا يعنى بالتفكير الديني عناية خاصة ، فظل سنة لم تصل إليه خلالها من والده غير بطاقتين ، ثم أخذه أحد أصدقائه إلى (جماعة أكسفورد) وحضر بعض اجتماعاتها فتحسنت العلاقات بينه وبين والده . . . وكل ذلك بفضل حضوره (جماعة أكسفورد) (وتفكيره في المسيح).

وهذا رجل ساءت علاقته الزوجية كثيراً ثم كُتب له أن يتعرف (بجماعة أكسفورد) ويصبح عضواً من أعضائها ، فانقلبت شقاوته الزوجية هناءة كل الهناءة ، وذلك طبعاً بفضل تفكيره في المسيح . . .

وعلى هذا المنوال من الأدلاء سار الخطباء والمتكلمون ، ثم أعلن الرئيس أن الاجتماع المقبل سيكون في دار إحدى العظيمات النبيلات وأخذ الجمع الحاشد يتناثر فئات فئات .

ثم قال الأستاذ محمود عزمي :

وأقبل علي الأساتذة الذين تعرفت عليهم وأخذوا يسألونني عن الأثر الذي تركه الاجتماع في نفسي . . . فقلت لهم : إن الاجتماع قد كان له في نفسي أثر عميق ! فتهللوا وطلبوا إليّ مزيداً من الإيضاح ، فقلت : أفهم أن جماعتكم نصرانية ، وأنها تسعى إلى إدخال هذه النصرانية في كل مظاهر الحياة الاجتماعية الحديثة ، وأن تسعى لحل مشاكل الخاصة والعامة . . . عن طريق النصرانية . فأجابوا : نعم . قلت هذا جميل لكن الذي كنت أفكر فيه خلال استماعي إلى أقوال المتكلمين طوال الاجتماع هو أن في البشرية أرباب أديان أخرى يريدون ما تريدون من اجتماعكم من تحقيق الإصلاح ، فما السبيل إلى ذلك ؟ قال واحد منهم : الحل أن يصبح الجميع مسيحيين !! . . .

وقال آخر : إنه استاذ بإحدى مدارس طهران ، وإن له في مدرسته هناك تلاميذ مسلمين وآخرين نصارى ، وقد حدث له فيها حدث أن جاءه يوماً تلميذ اسمه مصطفى ، شكا إليه ما يصيبه من اغتمام وما يناله من ضيق في حين أنْ صديقه التلميذ (حنا) لا يشعر إلا بغبطة ولا يفيض إلا بانشراح ، فنصحته أن كلما أحسست يا مصطفى ضيقاً أو أصابك اغتمام فكر في (المسيح) فإنه منقذك (وهو لم يستطع إنقاذ نفسه من الصلب على حد قولهم) ولم يمض اسبوع على هذه النصيحة حتى جاءه مصطفى منشرحاً يشكره ويبلغه أنه فكر في المسيح وأنه أصبح في هناءة !! »

أكتفي الآن بهذا القدر من الحديث عن أساتذة جماعة أكسفورد واجتماعات أكسفورد تاركاً التعليق لمن شاء بما شاء على ما ينسب إلى السيد المسيح عليه السلام الذي يحبه المسلمون ويقدرونه نبياً مرسلاً .

ولنعد إلى بعض أساتذتنا التقدميين المزيفين الذين يعتبرون الكلام بالثناء على الاسلام (الذي أدهش العالم في الماضي والحاضر وسيدهشه في المستقبل عن عظمته وروعته) رجعية ، وإنحطاطاً ، وهم لو أنصفوا لاتهموا عقولهم بالانحطاط والتأخر والحماقة .

نسأل الله سبحانه أن يجيرنا من شر أساتذة السوء كما نسأله أن يجيرنا من شر الاستعمار والصهيونية فإننا لنخشى أن يهدم هذا الجيل أساتذته قبل أعدائه !!

إن تسمية الاسلام وتوجيهاته السامية رجعية ، وتسمية السلوك المنافي للأخلاق تقدمية هو أول بشائر الأنهيار وهو إغراء للشباب من أجل ارتمائهم في أحضان الرذائل والشهوات ، وكل ذلك يحرمهم الإسلام ، لذا نرى الاباحيين ينفرون الناس من هذا الدين وينعتونه بالرجعية لأنه يقف سداً منيعاً أمام أهوائهم الهدامة . يقولون إن أوربا تسير في هذا الطريق الاباحي ، وهي لا تزال تتقدم ، فأجيب أن هذه البلاد لا تزال متماسكة بسبب تفوقها المادي علينا ، ولكن ساعة انهيارها قريبة ، وما نكبة فرنسا خلال الحرب الثانية منا ببعيدة ، وفيها عبرة للمعتبرين !

إن هذه الأمة العربية (لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها) وهي سائرة

في هذا الطريق المستقيم رغم أنوف الملاحدة والمارقين والكنودين .

وليت الدكتورحكمت حينما حضنا على أن تظل قوميتنا مفتوحة على العالم ، لفت نظرنا إلى أن هذا العالم هو أيضاً عالم ذئاب ، بل عالم كلاب مسعورة يجب أن نستعد له قبل أن يفترسنا !!

والنقطة الرابعة : خلط بين النظام العقائدي والسلوك

وأخيراً لنستمع إلى الدكتور يحدثنا عن النقطة الأخيرة :

« والنقطة الرابعة هي أن نؤمن بجدوى العمل البشري المثمر ، ذلك بأن العمل هو أداة الافصاح عن الذات ووسيلة الانتاج المادي الذي هو قوام الحياة والقوة والتحرر .

إن التفكير التأملي يظل ميتاً ما لم يتحل بالعمل . . . ولعل من خصائص عصرنا الحديث أن العمل فيه أصبح أعلى القيم على الاطلاق »-. .

إن هذا الكشف الذي أتحفنا الأستاذ حكمت به هو من صميم ديننا . لقد آمنا من قديم يا دكتور بجدوى العمل المثمر يوم جعل الاسلام قيمة كل امرىء ما يحسنه ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى﴾ ﴿ وقل اعملوا . .﴾ مما كان سبباً في الحضارة العربية القديمة التي أنشأت دمشق وبغداد وقرطبة وغرناطة ، وجعلت الغرب عالة علينا ، فنهب معامل الورق ومصانع الزجاج والبارود وغيرها في الحروب الصليبية وحين الاستيلاء على الأندلس ، التي كانت سبب نهضة الغرب . لذا كان الشيء الذي يدعونا إليه الدكتور هو صفة من صفاتنا الحضارية الأصيلة التي رفعنا إليها الإسلام .

والعجيب أن يخلط الدكتور حكمت فيما حدثنا عن العمل ، في نظامه العقائدي بين ما يصح أن يدخل في العقائد وبين ما لا يصح أن يدخل ، لأنه نمط من أنماط السلوك ، وهذه النقطة من بدهيات علم التربية وعلم النفس اللذين يقرران الفرق بين الاعتقاد والسلوك . وقد بقي الرسول العظيم عليه السلام سنين طويلة في مكة يسعى لتقوية الاعتقاد الصحيح في النفوس حتى إذا تمّ له ما يريد جاء قومه من عند الله بأنواع من السلوك الرفيع .

نظام الأستاذ حكمت العقائدي دون مؤيد !

هذا ـ وإننا لا ندري ما هو الدافع الذي سيدفع العربي لاعتناق تلك الايديولوجيا التي أتانا بها ، فهو لم يحدثنا عن شيء من ذلك ، وهو من أعظم نقاط الضعف في موضوعه .

قد يقول : إن الدافع هو الضمير الانساني ، ولكنا كلنا يعرف ما هو هذا الضمير ، وما هي آثار التقاليد . والميول الباطلة فيه ، وقديماً أحرقت وعذبت محاكم التفتيش فيأوروباالوف الضحايا ، وهي مرتاحة الضمير !

وقد يقول: أن الدافع هو المنفعة العامة، وهي دوافع أنانية ـ كما ثبت في علم الأخلاق ـ لا تصلح لتكون أساسا لانشاء العقائد السامية والأخلاق الغيرية .

إن الدافع الأول : هو الله سبحانه المطلع على بواطن النفوس وظواهرها ، فهو يكافىء المحسن ويعاقب المسيء ، وهذا البحث لا يدخل في حساب الدكتور ومن ذهب مذهبه ، لأنه من المباحث الرجعية في زعمهم ، بينما هي من أرقى البحوث لدى علماء الغرب والشرق العظام قديماً وحديثاً .

وهكذا جاءت تلك الإيديولوجية دون مؤيد حقيقي ، تود أن تحكم الناس من الخارج وتروضهم كما تروض الحيوانات !!

إن النظام العقائدي كشجرة جذورها الإيمان بالله وفروعها الأوامر الأخرى ، فإذا يبس الإيمان أو ضعف ، ضعفت معه الفروع والأغصان ، وأصبحت لا حياة فيها . بل أصبحت خبيثة تفسد ولا تصلح ، فينبغي أن تجتث من فوق الأرض .

وكما لا يتصور العقل وجود شجر في البر دون جذر ، كذلك لا يتصور العقل وجود نظام دون عقيدة . لهذا أخفق ويخفق المصلحون والفلاسفة الذين يصنعون النظم العقائدية دون إيمان بالله حيث تبقى نظمهم حبراً على ورق .

إن الإيمان بالله ليس نتيجة العاطفة وحدها ، بل هو نتيجة العقل السليم ، العقل الناضج ، فالإلحاد ظلم عظيم ، وجهل مطبق ، وغرور سخيف ، وحمق عريق ، وهل أحمق ممن لا يصدق بوجود ساعة بدون صانع ، ثم يروح ويزعم أن هذا الكون على عظمته ودقته وضبطه وجماله وجد من نفسه !

ونتيجة الكلام في هذا الموضوع إن كل نظام عقائدي لا تكون له جذور إيمانية بالله يبقى عبثاً ودون مؤيد .

قيمة ايديولوجية حكمت !

أما بعد . . .

إن هذه الآيديولوجيا التي أتانا بها الدكتور حكمت هاشم ، لا تحمل من الايديولوجيا إلا اسمها المثالي ، فهي تسكع وتقليد وضعف نظر ومادية خانقة وذوبان في بوتقة الغرب وإضاعة لشخصيتنا . وهي لا تليق بالأمة العربية الناهضة وذلك لانكارها الروح ، ومعنى ذلك أن الانسان خلق من العدم والعماء وإلى العدم والعماء يصير ولخلوها أيضاً من نظرة العربي الكلية إلى الكون والانسان والحياة ، ومعرفة منشئه ومصيره بحسب طاقته ، وغير ذلك من المثل العليا الروحية التي إذا كانت معدومة أو خاطئة أدّت بالانسانية والقومية إلى هوة المادية والهلاك .

العالم الاسلامي لا يدخل في حساب الدكتور !

وكذلك خلت ايديولوجية الأستاذ حكمت من التحدث عن العالم الاسلامي فهو لم يطلب إلينا أن تظل قوميتنا مفتوحة أمامه ، ولا غرابة في ذلك فإن دكتورنا وأمثاله لا يحسبون حساب العالم الاسلامي ويتغافلون عنه وبذلك يعرضون العروبة لأفدح الأخطار ، وإلى الغزو الخارجي ، فإن الأمة العربية التي تنهج نهج الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، لا بد لها من قوة كبيرة مخلصة تدعمها في هذا الحياد الذي يتطلب قوة أعظم من قوة الحرب من أجل تأليف المعسكر الثالث الحيادي الذي سينقذ الانسانية من الدمار . وهل غير العالم الاسلامي الذي يؤلف حوالي مليار مسلم، جدير باتحاد معنا (واقصد شعوبه لا بعض حكوماته) للقيام بهذا الدور الخطير !

العالم الاسلامي في نظر الزعماء السياسيين :

ولنستمع الآن إلى توجيهات أحد الرؤساء العرب في هذا الشأن فقد أدهش واقنع كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد :

« . . . ثم تبقى الدائرة الثالثة . . . الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتي قلت أنها دائرة إخوان العقيدة ، الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ، وتهمس شفاهم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد زاد ايماني بمدى الفاعلية الايجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الاسلامي بين جميع المسلمين ، أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية السعودية لتقديم العزاء في وفاة عاهلها الراحل الكبير .

ولقد وقفت أمام الكعبة ، وأحسست بخواطري تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الاسلام ، ثم وجدتني أقول لنفسي : يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج ، يجب أن لا يصبح الذهاب إلى الكعبة فقط تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو صكاً لشراء الغفران بعد حياة حافلة . يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ، ورجال الرأي فيها وعلماؤ ها في كافة انحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها وشبابها ليضعوا في هذا البرلمان الاسلامي العالمي ، خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم ، وتعاونها معاً . حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام يجتمعون خاشعين . . . ولكن أقوياء . متجردين من المطامع ،لكن عاملين مستضعفين لله . . . ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى . . ولكن مؤمنين أن لهم مكاناً تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله في هذه الحياة .

وأذكر أني قلت بعض خواطري هذه لجلالة الملك سعود فقال لي الملك :

إن هذه هي فعلاً الحكمة الحقيقية في الحج .

وفي الحق أني لا استطيع أن اتصور للحج حكمة « سياسية » أخرى ، وحين اسرح بخيالي إلى ثمانين مليوناً من المسلمين في اندونيسيا ، وخمسين مليوناً من الصين ، وبضعة ملايين في الملايو وسيام وبرما ، وما يقرب من مائة مليون في الباكستان ، وأكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليون داخل الاتحاد السوفيتي ، وملايين في أرجاء الأرض المتباعدة ـ حين اسرح بخيالي

إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، اخرج بأحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم في العقيدة ، قوة غير محدودة . .

نحن على مفترق الطرق

مما سبق يتضح لنا أن الأمة العربية على مفترق الطرق ، إما أن نقبل النظام العقائدي لأحد المعسكرين والانضمام إليه على طول الخط ، ومعنى ذلك فناء شخصيتنا وذوبان قوميتنا وتقاليدنا ، وإما أن نتسكع ونستجدي النظم من هنا وهناك لايجاد (لقيط) من النظام العقائدي ، فنقع في التجربة والبلبلة ، وقد رأينا سخف ذلك من مشروع الأستاذ حكمت.

وأما البقاء أحراراً في معسكر ثالث نتمسك بالنظام العقائدي الاسلامي العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولا يتصور العقل هذا المعسكر دون العالم الاسلامي أو الدائرة الثالثة كما عبّر عنه سيادة الرئيس المذكور .... . وهذا المعسكر بطريقه إلى الوجود ، بل أنه قد وجد . وما هو إلا المؤتمر الآسيوي الافريقي !

معسكر الشعوب لا الحكومات الفانية التي نرى مصارعها من حين إلى آخر !!

معسكر يحب العرب ويفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم وكم اثبتت الحوادث صحة ما نقول .

معسكر لا يرضى بزعامة العرب وقيادتهم بديلاً بسبب ما غرسه الاسلام في شعوبه من توجيه سام يرفع مكانة العرب المؤمنين .

معسكر قد عرّبه الاسلام فهو لا يفترق عن العرب في تقاليده وعاداته آماله وآلامه مما أثار دهشة الباحثين الغربيين الذين أعلنوا بكل صراحة أن الباكستان أقرب في عقليته إلى العربي من الهندوكي الذي عاش معه مئات السنين !!

الاسلام نظام عقائدي كامل

ولقائل أن يقول ها نحن أولاء قد قبلنا بهذا المعسكر ، فما بالنا لا نحتكم إلى نظام عقائدي (ايديولوجيا) نضعه بأيدينا وحسب حاجتنا ؟ .

مالنا نرجع إلى الوراء ، لنحتكم إلى تشريع وجد في الصحراء ؟
أليس من الخير إبعاد الدين عن السياسة كما فعل الغرب !
اليس من الخير أن نضيق دائرة الاسلام بالشعائر التعبدية فقط كما فعلت أوروبا ؟
هل نسينا ما أصاب الغرب في القرون الوسطى لما تمسك بدينه ، وكيف بعث ونهض لما ترك هذا الدين ؟

هل تريدون منا أن نحتكم إلى الاسلام ونعيد الكارثة والمأساة ؟
هذه حجج بعض (المثقفين) الذين عادوا إلينا من الغرب بعد ما درسوا في معاهده وشاهدوا فيه ما شاهدوا ، فجاؤ وا ليذكرونا بقصة قياس البيض على الباذنجان !

لقد بُحّت حناجرنا ونحن نقول لهؤلاء (المنورين) أن المسيحية دين تعبدي ليس فيه نظام للحكم وشعاره فصل الدين عن الدولة وفق ما جاء في الأنجيل : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وتدخل الكنيسة في السياسة كان افتراء منها .

وشعار الاسلام : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.
وهل أكفر ممن يترك تشريعاً طبقناه في المدينة المنورة وفي دمشق وفي بغداد وفي غرناطة أيام حضارتنا العظمى ، فكان لنا خير نبراس وأعظم قائد وأرقى موجه ، ولما تركناه ـ بشهادة التاريخ ـ وقعنا في هوة الانحطاط وتخطفنا الاستعمار من كل جانب .

لقد جربنا النظم الغربية ، سنين طويلة ، فقادتنا إلى الفوضى .
وقد سمعنا من شهادات الغربيين وغيرهم عن عظمة الاسلام وصلاحه لكل زمان ومكان ما يخرس الخصوم ويسكت الجهلاء .

وكم كنا نود أن نتحدث عن عظمة هذا الدين في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والسياسية من أجل تحقيق « المدينة الفاضلة » .

وكم كنا نود أن نتحدث عن نظرته الشمولية للكون والانسان والحياة بأسلوب إلهي رائع يدفع المؤمن إلى السمو المادي والروحي ، لولا خشية الإطالة ، ومن أراد الاطلاع على اتجاهات الاسلام في هذا الموضوع ، فليرجع إلى الكتب الاسلامية الحديثة في هذا الموضوع ومنها كتابنا « عظمة الإسلام » فإن فيها عبرة لمن يعتبر .

وإني لأعتذر من القارىء الكريم من إيراد بعض آراء الغربيين لأن كثيراً من الدكاترة (والمنورين) لا يقبلون بحجج العقل والمنطق ، بل يقول فلان وعلان من أسيادهم الغربيين !

العقل وعجزه عن وضع النظم العقائدية

يعتقد الدكتور حكمت ومن ذهب مذهبه أن الانسان قادر على وضع عقائده بيده ! وقد كان يجدر بهم أن يعتبروا بالديمقراطية والفاشية والاشتراكية والشيوعية ، وكلها قد اخفقت أو في طريق الإخفاق ، بعد ما سببت للعالم الكوارث والنكبات ، وواضعوها لهم أدمغة كبيرة ـ وكبيرة جداً ـ ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار !

إن العقل الذي تسبِّحون بحمده هو واضع هذه النظم العقائدية الفاسدة ، فهل آن الأوان أن تؤمنوا بعجزه في هذا المضمار . فإن السعيد من وعظ بغيره واعتبر بتجارب سواه !!

وهل آن الأوان أن تعترفوا بعدم قدسية تشريعاته ، والسخرية بها من الإنسان الغارق في الشهوات .

لقد حاولت الولايات المتحدة قبل ربع قرن تقريباً في عهد نضج العقل ورفعته أن تمنع الخمور بعد ما تبين لها أضرارها الفاحشة الاجتماعية والصحية والوراثية فقرر مجلساها اللذان يمثلان الأمة الأمريكية بشيوخها وشبابها فماذا كانت النتيجة ؟!

لقد حشدت الولايات المتحدة جيشها وشرطتها ورصدت الأموال لهذه

الغاية ، ولكن النفوس ركبت هواها واتبعت شهواتها ، فداست على قوانين دولتها وكثرت الاحتيالات والمغامرات من أجل تهريب الخمور وشربها ، فضاعت النفقات الباهظة ، وكثرت الضحايا من الأرواح ، مما اضطر هذه الدولة (الراقية) إلى التراجع عن قانونها وإباحة الخمور من جديد لتفسد في الأرض وتهلك الحرث والنسل !

هذا ما جرى في القرن العشرين ، وفي أرقى بلاد الدنيا ـ بزعم المغرورين ـ مما أثبت عجز القوانين البشرية عن الاصلاح .

ولنرجع الآن عقرب الزمن أربعة عشر قرناً إلى الوراء ، ولنذهب إلى الجزيرة العربية في عهد البعث الاسلامي يوم كان العرب منهمكين في شهواتهم وخمورهم المسيطرة على عقولهم ، والمغروسة في دمائهم ، فأنزل الله تعالى آية واحدة كان لها مفعول أعظم من قوة الولايات المتحدة ، فخضع لها هؤلاء العرب المسلمون راضين بحكم الله ، وحملوا خمورهم وأراقوها في شوارع المدينة مبالغة في الطاعة .

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، فقد قلب الاسلام جميع أوضاعهم الشاذة ، ووضعوا أنفسهم وأموالهم من أجل نصرة الدعوة ، وكان الواحد منهم إذا ارتكب إثماً ولو ترتب عليه القتل ، يسارع إلى الاقرار به دون تحقيق ، بغية تطهير نفسه من شوائبه وآثامه . ولله در العلامة السلفي الكبير ابن حزم الأندلسي إذ يقول في رسالة التوفيق على شارع النجاة باختصار الطريق :

« ولا يمكن البتة إصلاح أخلاق النفس بالفلسفة دون النبوة ، إذ طاعة غير الخالق ـ عز وجل ـ لا تلزم ، وأهل العقول مختلفون في تصويب هذه الاخلاق ، فذو القوة الغضبية التي هي غالبة على نفسه لا يرى من ذلك ما يراه ذو القوة النباتية الغالبة على نفسه ، وكلاهما لا يرى في ذلك ما يرى ذو القوة الناطقة الغالبة على نفسه » .

وقال أحد علماء الاجتماع في أمريكا : « إن الذي وصلت اليه بعد كل دراساتي في الاجتماع جعلني أوقن أن الجنس البشري ضعيف لا يؤتمن على نفسه ، محدود تجعله حدوده يتعثر ويتغير ويهدم ما بناه ؛ وتقتضي العدالة الإلهية

لأن يتدخل الله ليضع للذين خلقهم نظماً تهديهم سواء السبيل، وقد أصبحت اعتقد أن هذا التدخل ضرورة يفرضها العدل والرحمة بهذا الإنسان الضعيف[1].

ولا يظن أحد أننا نغمض العقل حقه ، أو نحط من قدره ، ولكننا نقول بأن العقل عاجز عن وضع نظام عقائدي ، يكون شاملاً وتاماً ، وقد جرب العلماء والزعماء ذلك منذ أزمان طويلة فأخفقوا وعرضوا أقوامهم للفوضى والهلاك والانحطاط .

والتجربة في المضمار الاجتماعي ليست كالتجربة في المضمار العلمي ، فإن خسائرها فادحة ـ إذا كانت خاطئة ـ ونتائجها الفاسدة تسري إلى أجيال بعيدة !

فهل يريد منا الدكتور حكمت أن نجرب وإلى جانبنا عدو لدود يدعمه الاستعمار الغربي وكل غفلة منا ، وكل إنحراف يؤدي بنا إلى الفناء !!

لقد جرّب العرب الإسلام وهم في أحط دركات الضعف فأوصلهم إلى أعظم النتائج في ميادين العلم والسياسة والأدب والاجتماع ، ثم حاولوا تركه متأثرين برجال الاستشراق والاستعمار فوقعوا في مهاوي الذل والاستعباد .

ألا يكفي هذا برهاناً على عظمة الاسلام لقوم يعقلون ؟!

ولنسمع الآن إلى العلامة محمد أسد (ليوبولدفايس) الذي أدهشه الاسلام واعتنقه ديناً فقال :

« إن الاسلام أكبر من أن يكون مجرد نظام سياسي ، إنه منهاج كامل للعقيدة والقيم الأخلاقية ، إنه نظرية اجتماعية شاملة ، ودعوة إلى الاستقامة والاعتدال في كل الامور الشخصية والشعبية ، إنه نظام عقائدي (ايديولوجيا) تام يعتبر كل مظاهر الحياة الأدبية منها والمادية ، والروحية والعقلية ، الفردية والاجتماعية كلاً لا يتجزأ »[2].

وقالت مجلة (لايف) الأمريكية الصادرة في مايس (مايو) ١٩٥٥ :

« إن الاسلام أكثر من مجرد دين رسمي ، إنه مذهب في الحياة أنه فلسفة ، إنه قوة دافعة لا مثيل لها في العالم الغربي » .

والله نسأل التوفيق والاخلاص في العمل ، وسداد الخطا وهو نعم المولى ونعم النصير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) مجلة المسلمون (ع٦م٥ص٩) .

(٢) منهاج الاسلام في الحكم ص ١٦٥ .

فهرس